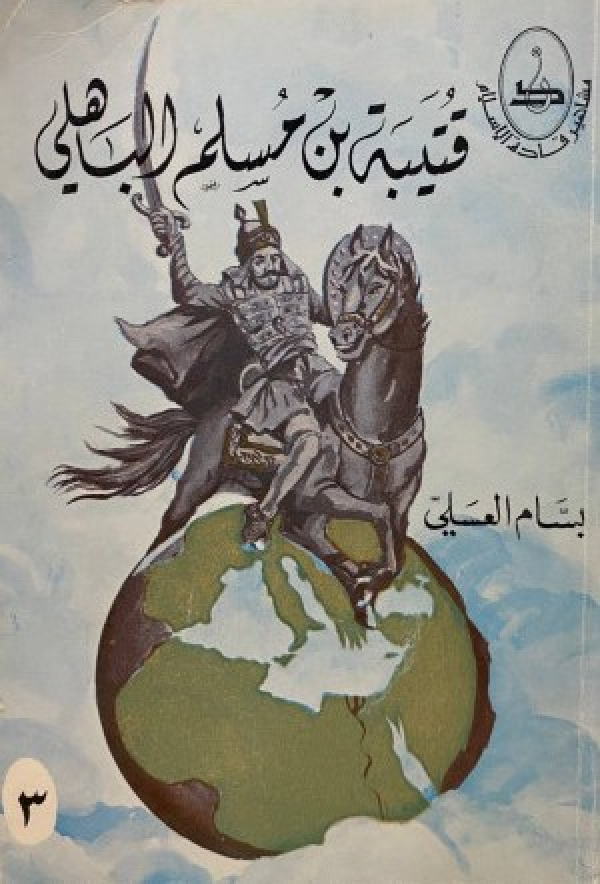

قتيبة بن مسلم الباهلي
بسام العسلي
٣



(٣)

قتيبة بن مسلم الباهلي

بسّام العسليّ



الطبعة الرابعة
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

○ دار النفائس
بيروت : ص ب ٦٣٤٧ - هاتف ٣٠٢٥٣٨ - ٣٠١٤٤٧ - برقيا: دانفايسكو

تصميم الغلاف الأول والثالث :
بريشة الفنان خالد العسلي

بسم الله الرحمن الرحيم

من خطاب قتيبة بن مسلم الباهلي
في التحريض على الجهاد [1]

أما بعد ... إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذُبَّ بكم عن الحرُمات ويزيدَ بكم المال استفاضة. والعدو وَقَماً (ذلاً) ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديثٍ صادق ، وكتاب ناطق فقال :

(هُوَ الَّذي أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ)[2] .

---

(١) عندما تولى قتيبه ولاية خراسان ، ألقى هذا الخطاب ــ احداث سنة ٨٦ هـ في تاريخ الطبري ٦/٤٢٤ والكامل في التاريخ لابن الاثير ٤/١٠٥ .

(٢) سورة الصف الآية ٩ .

ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب وأعظم الذُخْرِ عنده فقال :

(ذَلك بأنَّهُمْ لاَ يُصيبُهُم ظَمأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ في سَبيلِ الله ولا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغيظ الكُفّارَ ولا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نيلاً إلا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المُحْسِنِينْ . وَلاَ يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبيرةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إلا كُتِبَ لَهُمْ ليَجْزيهُم اللهُ أَحْسَنَ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ)[1]

ثم أخبر عمن قتل في سبيله أنه حي مرزوق . فقال :

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ)[2] .

فتنجزوا موعود ربكم ، ووطّنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإيايَ والهوينى .

---

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٠ و ١٢١ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٦٩ .

مقدمة

هذا رِفد جديد لمجموعة «**مشاهير قادة الاسلام**» يعالج أعمال قائد من أبرز قادة الدنيا ، هو قتيبة بن مسلم الباهلي .

لقد اشتهر خلال عمليات فتح المشرق (فارس) مجموعة من القادة البارزين قد يصعب حصرهم ، بداية من القعقاع بن عمرو التميمي وجرير بن عبد الله البجلي وضرار بن الخطاب الفهري وحرملة بن مريطة التميمي ، وسُلمى بن القين التميمي وجَزْء بن معاوية التميمي ، مروراً بالعلاء بن الحضرمي وحرقوص بن زهير السعدي والنعمان بن مقرن المزني ونهاية بأبي موسى الأشعري وسويد بن مقرن المزني والأحنف بن قيس التميمي وعاصم بن عمرو التميمي والحكم بن عمير التغلبي .

هؤلاء وأمثالهم كانوا هم الشهب التي أضاءت لهم سماء المشرق ، وانفتحت أمام عزيمتهم أبواب الدنيا . ولكن أحداً

منهم لم يتمكن من الوصول إلى ما أنجزه قتيبة بن مسلم الباهلي . وقد يكون من الصعب – دائماً – مقارنة قائد بقائد ، أو موازنة أعمال رجل برجل آخر ، وذلك لتغير الظروف والمواقف . فقد فتح هؤلاء فارس وأزالوا امبراطورية كانت ملء سمع الدنيا وبصرها . في حين جاء قتيبة في وقت لاحق ، ولم يكن عليه إلا – مواصلة منجزات أسلافه – ولكن أمام هذه الصورة تقف صورة مضادة تماماً . فقد باغت العرب المسلمون الدولة الفارسية بدينهم الجديد ، وتكوينهم الاسلامي الحديث ، وشدة بأسهم وصلابتهم بعد أن خلقهم القرآن خلقاً جديداً . ولم يكن لهم قِبَلٌ بمجابهة القوة الجديدة، فانهارت الدولة العريقة تحت سنابك جند المسلمين ، ولكن عندما جاء قتيبة ، كان هناك عدد كبير من أهل فارس قد دخل الاسلام في قلوبهم . وكان هناك من قالوا « أسلمنا » ولما يقر الاسلام في قلوبهم ، فكان هؤلاء هم الطابور الخامس ضد العرب المسلمين ، وكان هؤلاء أيضاً قد تمرسوا بأساليب قتال العرب المسلمين ، وعرفوا عنهم أساليب حربهم وفنون قتالهم . فكان على قتيبة مجابهة هذه التطورات كلها، بمزيد من الابداع، وبمزيد من تطوير فن الحرب، حتى يمكن انجاز ما طمح إليه، وحتى يمكن له تحقيق أهدافه .

اذا أمكن تجاوز ذلك كله إلى تقويم المنجزات في حد ذاتها . فعندئذ تظهر الصورة الحقيقية لأعمال قتيبة وفتوحاته ، إذ استطاع أن يفتح أقاليم واسعة تزيد على ما فتحه أسلافه كلهم ، ويزيد الأمر أهمية طبيعة الاقليم الصعبة ، ومناخها

القاسي ، وطبيعة سكانهـــا المقاتلين الأشداء كما عرفهم تاريخ الحروب منذ زمن بعيد .

لقد حاول عدد من القادة ــ قبل قتيبة ــ وضـــع استراتيجيات تتناسب والتطورات الجديدة في المواقف ــ أمثال المهلب بن أبي صفرة ، وعبد الرحمن بن الأشعث ــ ولكنهم لم يوفقوا في تحقيق أهدافهم ، وانجاز تطلعاتهم ، **وفشلوا في التوفيق بين الهدف ــ والوسيلة .**

رغم ذلك ، فهناك تشابه في « حجم المنجزات » وفي « الكفاءة القيادية » بين قائدين عاشا في زمن واحد وأنجزا أهدافهما في فترة واحدة ، ومضيا إلى ربهما دون فاصل كبير بينهما وهما قتيبة وموسى بن نصير ، أولهما أخضع المشرق وثانيهما أخضع المغرب ، ولكن رغم هذا التشابه في البدايات فهناك ثمة اختلاف في النهايات ، فقد قبل موسى بن نصير عزله ، واستسلم لقضاء ربه ، في حين تمرد قتيبة ، وأعلن ثورته دون أن ينتظر حقيقة الموقف ، فكان في ذلك قضاؤه وقدره . ومضيا إلى ربهما تاركين المشرق والمغرب لله جميعاً . وبقيت أعمالهما منارات تضيء أعماق التاريخ ، وترسل بظلالها إلى نهاية التاريخ .

قد يكون من التسرع هنا ، التعرض للمسيرة الطويلة التي سلكها قتيبة في حياته ، أو العمل على تحليل معطياتها ، ولكن قد يكون من الضروري التنويه بأنني استخدمت أسلوب السيَر ــ

أسلوب التأريخ القديم ـ وذلك بهدف إثارة عبق الماضي وتذوق نكهته . ثم العمل على تحليل ذلك كله وفقاً للأسلوب الحديث ، وان الهدف من ذلك هو (التعود على قراءة أسلوب) أصبح في ظل التطور الحديث هجيناً وغريباً رغم أصالته ودقته .

كلمة أخيرة في الهدف والوسيلة ، ان محاولة التعرف على تاريخ أمتنا وأمجادها ليست لمجرد المعرفة (أو المعرفة المجردة) بمعنى أن القضية ليست قضية (عبادة للتاريخ) وانما هي قضية الافادة من هذا التاريخ لاكتساب خبرة مادية ورصيد معنوي ، في فترة نحن أحوج ما نكون لذلك ، ومن هنا يبقى الأسلوب والهدف محدداً بحدي الخبرة والرصيد المعنوي ، ويفقد (المعنى والمبنى) كل أهميته إن لم يلتزم بهذين الحدين .

أما بالنسبة لنهاية قتيبة . فأفضل ما يمكن الاستشهاد به قوله تعالى : (وَما أصَابكُمْ من مُصيبةٍ فبما كسَبَت أيديكم ويعفُو عن كَثيرٍ) [1] .

بسام العسلي

(١) سوره الشورى الآية ٣٠ .

الفصل الأول

شخصية قتيبة وحروبه

قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي

الموقف العام
طبيعة الاقليم
الفتوح
غزو بيكند
فتح بخارى ٩٠ هـ = ٧٠٩ م
غزو شومان وكس ونسف ٩١ هـ
صلح قتيبة مع ملك خوارزم شاه وفتح خام جرد ٩٣ هـ
يوم سمرقند ٩٣ هـ
غزو الشاش وفرغانة ٩٤ و ٩٥ هـ
نهاية فتوح قتيبة (فتح كاشغر وغزو الصين ٩٦ هـ)
تمرد قتيبة ومصرعه



قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي

(٤٩ – ٩٦ هـ = ٦٦٩ – ٧١٥ م)

(قَاتِلُوهُمْ ، يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُم وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُم عَلَيهم . وَيَشْفِ صُدُورَ قَومٍ مُؤْمِنِين) .

(التوبة – ١٤)

ما من أمة أنتجت في عدد من الأجيال المتعاقبة نخبة قيادية وطليعة رائدة في فن الحرب مثل أمة العرب المسلمين . وإذا كانت هذه الظاهرة برهاناً قوياً على عمق الأثر الذي تركه الاسلام في الأمة العربية ، فانها في الوقت ذاته برهان على استعداد الأمة العربية للاضطلاع بأعباء رسالة الاسلام ، وحمل الأمانة لتعريف الناس أجمعين بما تضمنته الرسالة لما فيه خير الناس – كل الناس . وإذا ما أمكن تجاوز المرحلة الأولى لظهور

الاسلام ، من أجل الوصول إلى ما بعد جيلين من ظهور الاسلام . فسيظهر بوضوح استمرار عطاء الاسلام بكامل قوته ، ويتجلى ذلك بظهور قائدين كبيرين في جيل واحد ، أولهما أخضع المغرب وفتح الأندلس وهو موسى بن نصير وثانيهما أخضع المشرق، وفتح من المساحات الجغرافية ما يعادل مساحة الأندلس وقد يزيد عليها . وليس المهم بعد ذلك تحديد المساحات الجغرافية للمقارنة بين انجازات القائدين العظيمين، بقدر مـــا يهم تقويم التشابه في السياسة الاستراتيجية والطرائق العملياتية وحتّى التكتيكية (التعبوية) للرجلين الخالدين . ووفقاً لهذا المضمون يقف قائد المشرق قتيبة بن مسلم الباهلي ليحتل في التاريخ ذات المرتبة التي احتلها قائد فتح المغرب والأندلس .

ولد قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي – أبو حفص – في عهد معاوية (عام ٤٩ هـ = ٦٦٩ م) وكان أبوه عظيم القدر عند يزيد بن معاوية . ونشأ هو في الدولة المروانية ، فولي الري في أيام عبد الملك بن مروان ، وولي خراسان في أيام ابنه الوليد ، ووثب لغزو ما وراء النهر ، فتوغل فيها وافتتح كثيراً من المدائن كخوارزم وسجستان وسمرقند ، وغـــزا أطراف الصين ، وفرض عليها الجزية ، وخضعت له بلاد ما وراء النهر كلها ، واشتهرت فتوحاته فاستمرت ولايته ثلاث عشرة سنة ، وهو عظيم المكانة مرهوب الجانب ، ومات الوليد واستخلف سليمان بن عبد الملك . وكان هذا يكره قتيبة . فأراد قتيبة الاستقلال بما في يده ، وجاهر بنزع الطاعة .

واختلف عليه قادة جيشه ، فقتله وكيع بن حسان التميمي بفرغانة ، وكان مع بطولته ، دمث الأخلاق ، داهية ، طويل الروية ، راوية للشعر عالماً به .

تلك هي الملامح العامة لحياة قتيبة بن مسلم . وحتى تكون الصورة أكثر وضوحاً يمكن العودة إلى عام ٧٧ هـ = ٦٩٦ م . ففي هذه السنة كان الحجاج بن يوسف الثقفي يعمل على اخماد الفتن في العراق الثائر ، وكانت ثورة (شبيب عتاب بن ورقاء) قد استفحلت بدخول شبيب الكوفة ، وانتصاره على كتائب الحجاج . فأرسل الحجاح الى وجوه القوم يستشيرهم ، وأذن لهم فدخلوا عليه في مجلسه الذي يبيت فيه وهو على سرير عليه لحاف فقال : « ان هذا الرجل قد تبحبح بحبوحتكم ، ودخل حريمكم ، وقتل مقاتلتكم ، فأشيروا علي » فأطرقوا . وفصل رجل من الصف بكرسيه فقال : إن أذن الأمير لي تكلمت ، فقال : تكلم . فقال : « **إن الأمير والله ما راقب الله، ولا حفظ أمير المؤمنين، ولا نصح للرعية** » ثم جلس بكرسيه في الصف . قال (الراوي) : **واذا هو قتيبة** . قال فغضب الحجاج ، وألقى اللحاف ، ودلى قدميه من السرير ، فقال : من المتكلم ؟ قال : فخرج قتيبة بكرسيه من الصف ، فأعاد الكلام . قال (الحجاج) : فما الرأي ؟ . قال : أن تخرج إليه فتحاكمه ؛ قال : فارتد لي معسكراً ثم اغدُ لي [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٢٧٢/٦ ــ ٧٢٣ والكامل في التاريخ ٦٠/٤ .

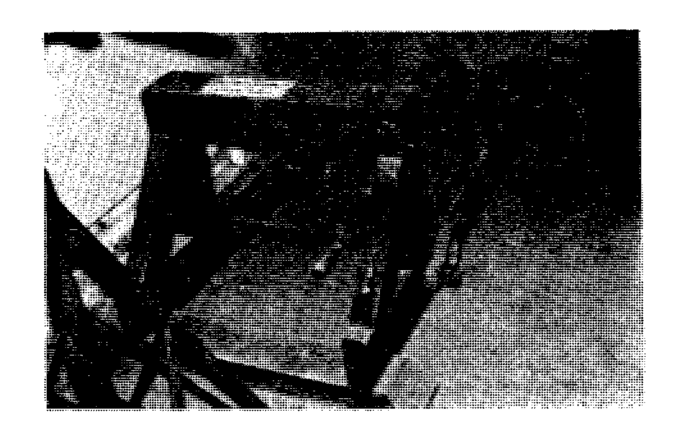
صلى الحجاج الصبح من اليوم التالي ، ثم دخل ، فجعل رسوله يخرج ساعةً بعد ساعة فيقول : أجاء بعد ؟ أجاء بعد ؟ ولم يعرف الناس من يريد وقد أفعمت المقصورة بالناس . فخرج الرسولُ ، فقال أجاء بعد ؟ وإذا بقتيبة يمشي في المسجد عليه قباء هروي أصفر ، وعمامة خز أحمر ، متقلداً سيفاً عريضاً قصير الحمائل حتى كأنه في إبطه ؛ قد أدخل بركة قبائه في منطقته ، والدرع يصفق ساقيه ، ففُتح له الباب ، فدخل ولم يحجب . فلبث طويلاً ثم خرج، وأخرج معه لواءاً منشوراً ، فصلى الحجاج ركعتين ، ثم خرج يتبع قتيبة ، وركب الناس وركب قتيبة ، فأخــذ طريق دار السقاية حتى خرج الى السبخة وبها عسكر شبيب ، وأتى الموضع الذي كان قتيبة قد استطلعه (ارتاده) فقيل له ها هنا ؟ انه لموضع قذر. فقال: ما تدعوني إليه أقذر ، الأرض تحته طيبة والسماء فوقه طيبة . ونزل قتيبة فصف الناس . وما أن نشب القتال ، حتى تسلل خالد بن عتاب ومعه نفر حتى وصل إلى ما وراء معسكر شبيب فأضرم أخصاصهم[1] بالنار، فلما رأوا ضوء النار وسمعوا معمعتها ، التفتوا فرأوها في منازلهم . فولوا الى خيلهم ، وتبعهم الناس ، وكانت الهزيمة » .

لقد كانت هذه أول تجربة ، اختبر فيها الحجاج كفاءة قتيبة بن مسلم . وكانت مجابهة الشاب الذي لم يبلغ الثلاثين من العمر ، لوالي العراق ــ الحجاج ــ الذي عرف بالبأس والقوة برهاناً على صلابة هذا الشاب . فاعتمد الحجاج رأيه دون

---

(١) جمع خص ، وهو البيت المصنوع من شجر أو قصب .

الناس جميعاً . وكان النصر في ركابه ، مما رفعه في أعين الحجاج والناس جميعاً ولكن قبل المضي في متابعة حياة قتيبة ، قد يكون من المفيد استعراض الأحداث الرئيسية في حياة قائد المستقبل .



مسيرة الأحداث في حياة قتيبة بن مسلم الباهلي

السنة(هـ)	السنة (م)	وجيز الأحداث
٤٩	٦٦٩	ولادة قتيبة بن مسلم في الشام .
٧٧	٦٩٦	اشتراك قتيبة مع والي العراق الحجاج بن يوسف في القضاء على ثورة شبيب .
٨٣	٧٠٢	قتيبة يتولى امارة الري من قبل الحجاج لاخماد ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث
٨٦	٧٠٥	وفاة عبد الملك بن مروان وانتقال امارة المسلمين للوليد بن عبد الملك .
٨٦	٧٠٥	قتيبة يتولى امارة خراسان من قبل الحجاج بن يوسف .
٨٧	٧٠٦	صلح قتيبة ونيزك وغزو قتيبة لبيكند .
٨٨	٧٠٧	غزو قتيبة نومشكت ورامثينه .
٨٨	٧٠٧	فتح حصن طوانه من بلاد الروم
٨٩	٧٠٨	غزو قتيبة لبخارى .
٨٩	٧٠٨	هجوم البحرية الاسلامية على جزر الباليئار في غربي المتوسط واحتلالها .
٩٠	٧٠٩	فتح قتيبة لبخارى والصلح مع السغد وفتح الطالقان

٩١	٧١٠	غزو شومان وكس ونسف وفتحها .
٩١	٧١٠	توجيه موسى بن نصير مولاه طارق بن زياد لفتح الأندلس .
٩٢	٧١١	فتح الأندلس بقيادة موسى بن نصير .
٩٢	٧١١	غزو جزيرة سردينية .
٩٣	٧١٢	صلح قتيبة مع ملك خوارزم شاه وفتح خام جرد وغزو سمرقند ثم فتحها .
٩٣	٧١٢	فتح طليطلة بالأندلس .
٩٤	٧١٣	غزو قتيبة الشاش وفرغانه .
٩٥	٧١٤	فتح الشاش .
٩٥	٧١٤	وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي (أمير العراق للوليد) .
٩٦	٧١٥	موت الوليد بن عبد الملك وولاية أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك .
٩٦	٧١٥	فتح قتيبة كاشغر وغزو الصين .
٩٦	٧١٥	تمرد قتيبة بن مسلم ومصرعه .
٩٧	٧١٦	موت موسى بن نصير .

الموقف العام :

حدثت معركة **القادسية**[1] في عام ١٤ هـ = ٦٣٥ م ، واستمر صراع المسلمين مع الفرس على الجبهة الشرقية حتى عام ١٩ هـ (أو ٢١ هـ) عندما وقعت معركة نهاوند (فتح الفتوح) وأصدر الخليفة عمر رضي الله عنه أوامره الى المسلمين (بالانسياح) وفتح فارس . وأمكن خلال أعوام ثلاثة الاحاطة بالهضبة الفارسية بداية من جبال الأهواز ومروراً بهمذان والري وأصبهان وأبهر وقزوين وقومس وجرجان وطبرستان واصطخر ونهاية بأقاليم مكران في الجنوب وسجستان في الشرق . لكن حجم القوات الاسلامية لم يكن يتناسب أبداً مع اتساع المساحات الجغرافية التي تم فتحها ، ثم جاء بعد ذلك التمزق السياسي لوحدة العالم الاسلامي (أيام الخليفة علي ومعاوية) فزاد الأمر سوءاً ، وأخذت أقاليم فارس في اعلان تمردها وخروجها على المسلمين ، وعندما استقر الأمر لمعاوية ، بذل جهده لاعادة الاستقرار إلى بلاد فارس . وحقق بعض النجاح في ذلك ، الا أن بلاد فارس بقيت باستمرار تهدد كيان الدولة الأموية ، وتقلق أمراءها ، إذ تحولت إلى قاعدة دائمة لكل طامع بالدولة الأموية ، ولكل ثائر ضدها ، وبقي الأمر كذلك حتى

---

(١) لدراسة معركة القادسية راجع كتاب « القادسية » أحمد عادل كمال ، منشورات دار النفائس .

ولي الحجاج بن يوسف الثقفي حكم العراق ، فأخذ يبذل كل اهتمامه لتحصين الثغور واختار أكفأ القادة . فكان محمد بن القاسم الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي. وحقق اختياره نجاحاً رائعاً . إذ لم تلبث القيادة الماهرة لقتيبة أن فرضت وجودها في صنع الأحداث ، فلم تتوقف أعمال قتيبة على تحقيق الأمن والاستقرار وانما تجاوزت ذلك لضم اقليمين جديدين يعادلان في مساحتهما ما يزيد على نصف مساحة دولة فارس كلها ، ويزيدان في أهميتهما على فارس ذاتها . وهما اقليم السغد (الصغد) بين نهري سيحون وجيحون (سيراداريا – وأموداريا حديثاً) واقليم خراسان جنوبي نهر جيحون .

لقد كانت الثورات المناوئة في (فارس) تجد لها دعماً قوياً وقاعدة خلفية صلبة في هذين الاقليمين ، وكان اخضاعهما يشكل القضية الأساسية لتحقيق الاستقرار الكامل في الأقاليم التي تم افتتاحها . وعلاوة على ذلك ، فقد كان موقع الاقليمين يشكل عقبة أمام توغل كل قوات للمسلمين ، سواء في شمالي الهند أو للاقتراب من الصين . واذا أضيف إلى ذلك طبيعة السكان ، وهم من المقاتلين الأشداء الذين تمرسوا بالحرب ، والذين أطلقوا غزوات التتار التي هاجمت أوربا في القرون الأربعة الأولى للميلاد ، ظهرت المهمة الصعبة التي جابهت قتيبة بن مسلم الباهلي .

طبيعة الاقليم :

يشكل العامل الجغرافي عاملاً شبه ثابت في دراسة الحروب ، فالطبيعة الجغرافية لم تتبدل كثيراً منذ قام المسلمون بفتوحاتهم وحتى اليوم ، رغم ما تعرضت له من هزات أرضية . وتتكون الطبيعة الجغرافية لاقليمي السغد وخراسان من مناطق جبلية (امتداد لهضبة التيبت وجبال آلاي) مع وجود عوائق نهرية ، وتتميز جبال الاقليمين بوعورتها وصعوبة مسالكها ، وتنفرج هذه الجبال عن سهول خصبة تؤمن للسكان مواردهم الحياتية ، أما مدن الاقليمين فكانت عبارة عن قلاع محصنة ، إذ كانت هذه المدن تتعرض للغزوات باستمرار مما حمل أهلها على تحصينها وتنظيم الدفاع عنها .

تقع أقاليم السغد وخراسان في المناطق الباردة ، حيث تغمرها الثلوج في الشتاء ، ولهذا فقد كان النجاح في العمليات يرتبط بتأمين حسم الصراع خلال فترة محدودة هي فترة الربيع والصيف ، وكان من المحال على قوات المسلمين القيام بأعمال قتالية في غير هذين الفصلين ، وهذا ما كان يفرض تحديد هدف واضح لكل سنة ثم الانتقال في السنة التالية لتحقيق هدف آخر وهكذا .

لقد تعاونت مجموعة من العوامل الجغرافية ، والاقليمية والبشرية لتجعل من اقليمي الصغد وخراسان مناطق يصعب

ارتيادها ، وهذا ما حمل قادة العرب المسلمين على تجنب التورط في أعمال قتالية ضمن هذه الأقاليم . وأفاد سكان هذه الأقاليم من هذا الموقع لتغذية الثورة على المسلمين والكيد لهم والنكاية بهم . وهكذا فعندما تولى قتيبة القيادة كان أمام خيارين إما اقتحام المجازفة وفتح مناطق لم يجرؤ قادة المسلمين من قبل على اقتحامها.أو الاكتفاء بما فتحه المسلمون وفرض حصار قوي يمنع التسلل بين الأقاليم التي فتحها المسلمون وتلك التي لم يصلوا اليها .

ولم تكن لدى قتيبة الإمكانات الكافية لاقـــامة (ستار حديدي) فقوة العرب المسلمين لم تصل في أوج قوتها الى ٥٠ ألف مقاتل . وهي قوة قليلة لا تكاد تذكر بالنسبة لاتساع الاقليم وصعوبته ، ولهذا لجأ قتيبة إلى الحل الأول — واقتحم المجازفة — .

لقد فرضت مجموعة العوامل الجغرافية والاقليمية (المناخية) والبشرية على عمليات قتيبة خصائص معينة ، مثل اللجوء إلى استخدام المنجنيق ، واستخدام وسائط الوقاية المضادة لأعمال الحصار ، بالاضافة إلى استخدام كل وسائط الابداع والخيال لحل المشكلات الطارئة والمتجددة . سواء كانت هذه المشكلات تتعلق بالسياسة الاستراتيجية للفتوح ، أو تتعلق بالطرائـــق العملياتية ، وحتى مستوى التنفيذ التكتيكي ، ولعل هذا الطابع هو أبرز السمات المميزة لعمليات قتيبة بن مسلم الباهلي .

الفتـــوح :

كانت الري – وكل بلاد فارس – تضطرم ناراً ، ما أن تهدأ ثورة حتّى تندلع ثورة أقوى وأكبر ، وكانت أقوى الثورات حين تولى قتيبة بن مسلم إمـــارة الري [1] ثورة عبـــد الرحمن بن الأشعث ، فانصرف قتيبة إلى اخمـــاد الفتن ، وتحقيق الأمن والاستقرار وبناء القاعدة القوية ، حتّى ينطلق لغزواته الكبرى وفتوحاته الواسعة . وكان الحجاج وقد ضاق ذرعاً بالموقف المتدهور على الجبهة الشرقية ، قد أخذ في تركيز اهتمامه على اخضاع الأقاليم المتمردة ، فدعا الناس يوم قضى على ثورة الأشعث : **من لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو أمان له** فلحق ناس كثير بقتيبة .

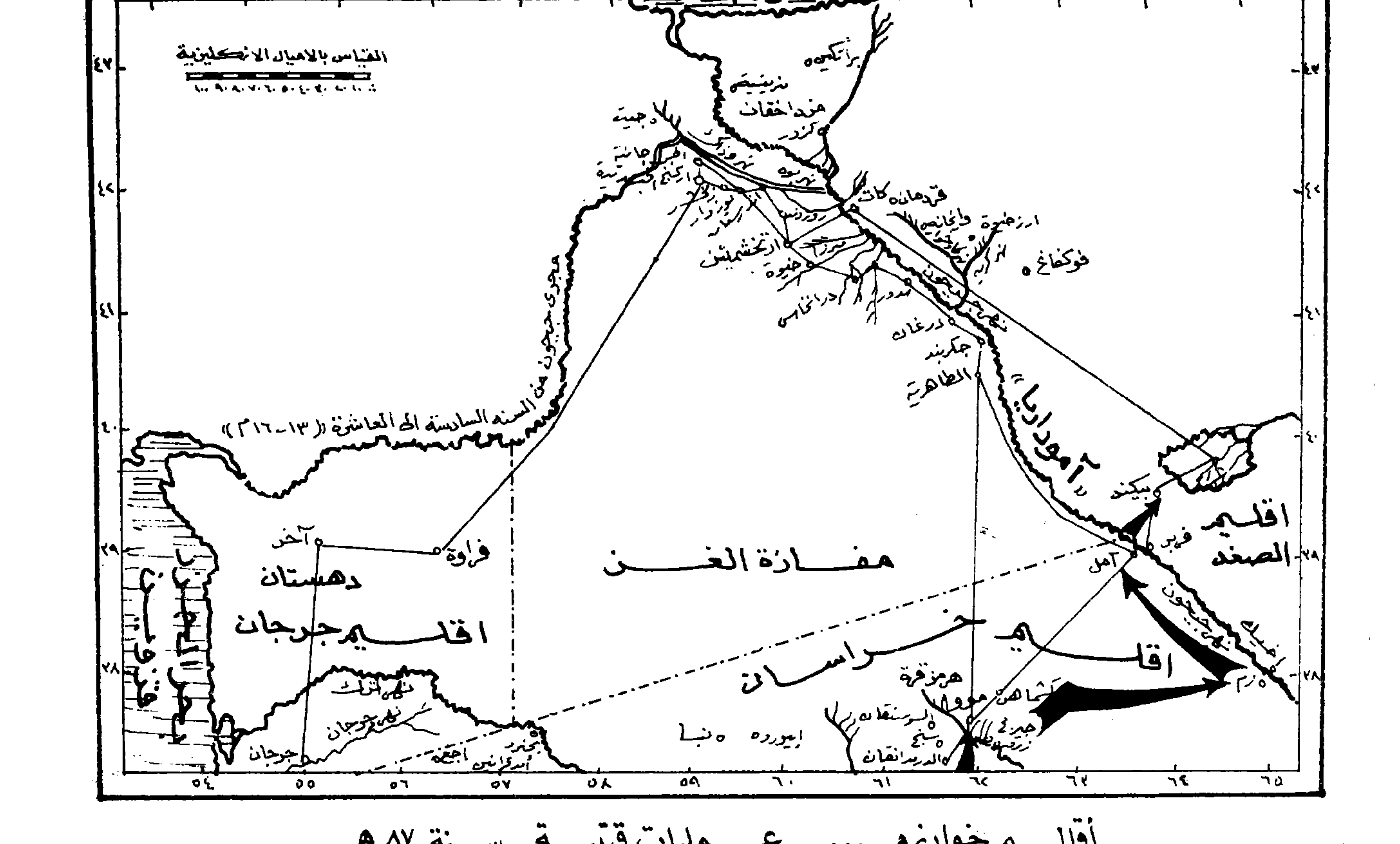
كان المهلب بن أبي صفرة قد تولى امارة خراسان ، فأحسن ادارتها ، وسد ثغورها ، وافتتح أقاليمها ، ولكن المنية عاجلته في سنة ٨٢ هـ = ٧٠١ م ، فتولى يزيد بن المهلب امارتها ريثما

---

(١) الري – جنوب بحر قزوين وشمال شرق همذان (في موقع طهران العاصمة الايرانية حالياً) . كانت مدينة مشهورة وهي قصبة (عاصمة) بلاد الجبال. ولمعرفة المزيد عنها يمكن الرجوع إلى آثار البلاد واخبار العباد (ص ٦٧٥) والمسالك والممالك للاصطخري (ص ١٢٢) ومعجم البلدان (٤/٣٥٥) .

يقرر أمير المؤمنين في الشام من يوليه على ثغرها ، ثم ان الحجاج ابن يوسف كتب الى عبد الملك بن مروان ، يذم يزيد وآل المهلب بسبب تأييدهم السابق للزبيرية ، وانتصارهم لهم . فأجاب عبد الملك : إني لا أرى نقصاً بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير ، بل أراه وفاء منهم لهم ، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي . فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم ، استناداً إلى المعلومات التي توافرت له عن قوتهم وقدراتهم . فكتب إليه عبد الملك ، قد أكثرت في يزيد وآل المهلب ، فسم لي رجلاً يصلح لخراسان ، فسمى له (مجاعة بن سعر السعدي) فكتب إليه عبد الملك : إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب هو الذي دعاك إلى مجاعة بن سعر ، **فانظر لي رجلاً صارماً ، ماضياً لأمرك ، فسمى قتيبة بن مسلم** . فكتب إليه ولّه . (أي اسند اليه امارة خراسان) . فتم ذلك ، وتسلم قتيبة امارة خراسان في سنة ٨٥ هـ = ٧٠٤ م .

قدم قتيبة خراسان سنة خمس وثمانين ، فجمع الناس ، وحضهم على الجهاد (في كلمته المثبتة في مقدمة هذا الكتاب) ثم انه عرض الجند في السلاح والكراع ، فكان جميع ما أحصوا من الدروع في جند خراسان ثلاثمائة وخمسين درعاً . وبعد أن أتم تنظيمه ، غادر مرو ، واستخلف على حربها إياس بن عبد الله بن عمرو ، وعلى الخراج عثمان بن السعدي وعندما وصل الجيش الى نهر جيحون (المعروف حالياً باسم أموداريا) .



أقاليم خوارزم [illegible] عمليات قتيبة [illegible] سنة ٨٧ هـ

توقف في بلخ [1] لأن بعضها كان منتقضاً عليه ، وقد ناصب المسلمين ، فحارب أهلها ، ثم ان أهل بلخ صالحوا من غد اليوم الذي حاربهم قتيبة ، فأمر قتيبة برد السبي ، ثم مضى إلى الطالقان[2] بعد أن استقبل دهاقين بلخ وبعض عظمائهم الذين ساروا معه ، فلما قطع نهر جيحون تلقاه ملك الصغانيان [3] ، بهدايا ومفتاح من ذهب ، فدعاه الى بلاده ، فأتاه وأتى كفتان بهدايا وأموال ودعاه الى بلاده ، فمضى الى الصغانيان ، وكان ملك (أخرون وشومان – وهما من طخارستان) قد أساءا جوار ملك الصغانيان ، فغزا قتيبة أخرون وشومان فجاءه ملكها (غيسلشنان) فصالحه على فدية أداها اليه ، فقبلها قتيبة، ثم قفل فركب السفن، فانحدر إلى بلدة آمل، وخلف الجند

---

(١) بلخ – مدينة قديمة ومشهورة بخراسان . تقع على نهر جيحون (أموداريا حالياً) اكتسبت اهميتها لوقوعها على مفترق الطرق شرقاً إلى السند والهند وشمالاً إلى بلاد الترك . لمعرفة مزيد من المعلومات عن تاريخها القديم يمكن الرجوع إلى المسالك والممالك (١٥٤) وتقويم البلدان (٤٦٠) وأحسن التقاسيم (٢٩٥) ومعجم البلدان (٢/٢٦٣) وآثار البلاد (٣٣١) ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه (٣٢٢) .

(٢) الطالقان: بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ . ويمكن الرجوع إلى آثار البلاد واخبار العباد (٤٠٢) ومعجم البلدان (٦ / ٧) .

(٣) الصغانيان – ولاية عظيمة فيما وراء نهر جيحون متصلة الاعمال بترمذ (معجم البلدان ٥/٣٦١) .

بقيادة أخيه صالح بن مسلم . وتقدم قتيبة جنده فسبقهم إلى مرو ، وفتح صالح وهو في طريقه مدينة (باسارا) ثم تابع طريقه إلى بلخ ، فمرو ، وعندما بلغ الحجاج ذلك ، كتب إلى قتيبة يلومه ، ويعجز رأيه في تخليف الجند وكتب اليه (**اذا غزوت فكن في مقدم الناس ، وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم**) .

أمضى قتيبة عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م . في تنفيذ هذه العمليات التي كانت بمثابة استطلاع ميداني للموقف أكثر منها عمليات قتالية . وعندما رجع الى مقر عملياته ومركز ادارته لإقليم خراسان [١] انصرف الى إدارة ولايته استعداداً للمرحلة القتالية التالية ، في سنته القادمة .

---

(١) خراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق العجمي من الغرب وافغانستان والهند من الشرق ، وتقع كرمان وسجستان إلى جنوبها ، وتمتد في الشمال إلى أقصى تخوم ايران ، من مدنها الرئيسية : نيسابور ، وهراة ، ومرو ، وبلخ ، وقد فتحت بلاد خراسان سنة ٢٢ هـ ، في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، ثم تمردت واعيد فتحها ، معجم البلدان ٤٠٧/٣ المسالك والممالك للاصطخري (١٤٥ — ١٦٠) تاريخ الطبري وابن الأثير أحداث سنة ٢٢ هـ .

غزو بيكند[1] :

علم قتيبة بوجود أسرى للمسلمين في قبضة نيزك (ملك طرخان) فكتب اليه طالباً إطلاق سراح الأسرى ، وتهدده في كتابه ، فخاف نيزك ، فأطلق الأسرى وبعث بهم إلى قتيبة. فوجه اليه قتيبة من يدعوه الى الصلح ، وإلى أن يؤمنه ، وكتب اليه كتاباً يحلف فيه بالله : « لئن لم يقدم عليه ليغزونه ، ثم ليطلبنه حيث كان ، لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك » .

وتوجه سفير قتيبة إلى نيزك والكتاب بيده – وكان يستنصحه ، فقال نيزك للسفير : « ما أظن عند صاحبك خيراً ، كتب إلي كتاباً لا يكتب إلى مثلي ! » فقال له السفير : « **يا أبا الهياج، إن هذا رجل شديد في سلطانه، سهل إذاسوهل، صعب إذا عوسر ، فلا يمنعك من غلظة كتابه إليك** ، فما أحسن حالك عنده وعند جميع مضر » فقدم نيزك مع السفير على قتيبة ، فصالحه أهل باذغيس في سنة ٨٧ هـ = ٧٠٦ م على ألا يدخل باذغيس .

بعد أن أمن قتيبة شر نيزك وصالحه ، أقام إلى وقت الغزو ،

---

(١) بيكند : أدنى مدائن بخارى إلى نهر جيحون ، يقال لها مدينة التجار ، على رأس المفازة من بخارى . (تاريخ الطبري ٤٣٠/٦) و (معجم البلدان . ب) .

ثم سار من مرو وأتى مرو الروذ [1] ثم أتى زم ثم مضى إلى آمل فقطع نهر جيحون وسار الى بيكند [2] .

عندما علم أهل بيكند باقتراب جيش قتيبة . استنصروا الصغد ، واستمدوا من حولهم ، فأتوهم في جمع كثير ، وأخذوا بالطريق (قطعوا عليهم محاور اتصالهم الخلفية) فلم ينفـــذ لقتيبة رسول ، ولم يصل إليه رسول ، ولم يجر له خبر شهرين ، وأبطأ خبره على الحجاج ، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد ، وكتب بذلك إلى الأمصار ، وهم يقتتلون كل يوم .

---

(١) هناك بلدان يحملان اسم مرو ، الأولى في الشمال عند منتصف المسافة ما بين نيسابور وبخارى وتعرف بمرو الشاهجان ، والثانية تسمى مرو الروذ لتمييزها. وتقع إلى الجنوب من الأولى . والروذ معناها (بلغة خراسان) النهر ، ومرو (حجارة بيضاء) ، ويصبح معنى مرود الروذ (نهر الحجارة البيضاء) اما مرو الشاهجان فمعنى الشاه (ملك) وجان (الروح أو النفس) فيصبح الاسم (روح الملك) . وقد فتح المسلمون مرو (صلحاً) في عام ٢٨ هـ (معجم البلدان — الحموي — ج ٥ ص ١١٢) (والمسالك والممالك ١٤٧ ، ١٥٢) (وآثار البلاد واخبار العباد ٤٥٥ — ٤٥٦) .

(٢) في رواية الطبري (٤٣٠/٦) ان قتيبة توجه إلى آمل ثم إلى زم ، وهو أمر بعيد الاحتمال . نظراً لاختلاف محور التحرك . لا سيما وأن آمل تقع جنوب بيكند مباشرة .

كان لقتيبة جاسوس (عين) يقال له تنذر من الفرس (العجم) فأعطاه أهل بخارى الأعلى مالاً على أن يصرف عنهم قتيبة . فأتى تنذر الى قتيبة ، وطلب الاجتماع به على انفراد ، فنهض الناس وانصرفوا ، واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضبي حتى يحضر المقابلة . فقال تنذر : « هذا عامل يقدم عليك ، وقد عُزل الحجاج ، فلو انصرفت بالناس إلى مرو ! » فدعا قتيبة سياه مولاه ، فقال « اضرب عنق تنذر » فقتله ، ثم قال لضرار : « لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك ، وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنك به . فاملك لسانك . فان انتشار هذا الحديث ، يفت في أعضاد الناس » ثم أذن قتيبة للناس بالدخول عليه ، وعندما دخلوا راعهم قتل تنذر ، فوجموا وأطرقوا ، فقال قتيبة : « ما يروعكم مِن قتل عبد أحانه الله ! » قالوا : « إنا كنا نظنه ناصحاً للمسلمين » قال : « بل كان غاشاً ، فأحانه الله بذنبه ، فقد مضى لسبيله ، فاغدوا على قتال عدوكم ، وألقوهم بغير ما كنتم تلقونهم به » . فغدا الناس متأهبين ، وأخذوا مصافهم ، ومشى قتيبة ، فحَضَّ أهل الرايات ، فكان بين الناس قتال بالرماح ثم تزاحفوا والتقوا ، وأخذت السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبر ، فقاتلوهم حتى زالت الشمس ، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون المدينة ، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول ، فتفرقوا ، وركبهم المسلمون قتلا

وأسراً كيف شاءوا . واعتصم من دخل المدينة بالمدينة ، وهم قليل ، فوضع قتيبة الفعلة (المهندسين) للعمل في أصلها ليهدمها . فسألوه الصلح ، فصالحهم . واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة . ثم ارتحل عنهم يريد الرجوع . فلما سار مرحلة أو اثنتين. وكان منهم على خمسة فراسخ(١٥ ميلاً) ، نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامل وأصحابه . وجدعوا أنوفهم وآذانهم ، وبلغ قتيبة الخبر، فرجع إليهم وقد تحصنوا، فقاتلهم شهراً، ثم وضع الفعلة في أصل المدينة ، فعلقوها بالخشب ، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتنهدم . فسقط الحائط وهم يعلقونه ، فقتل أربعين من الفعلة ، فطلبوا الصلح ، فأبى ، وقاتلهم حتى ظفر بهم عنوة . فقتل من كان فيها من المقاتلة . وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش (استثار) الترك على المسلمين ، فقال لقتيبة : أنا أفدي نفسي ، وسألوه « ما تبذل ؟ » قال : « خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف » فقال قتيبة : « ما ترون ؟ » قالوا « نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين . وما عسى أن يبلغ من كيد هذا ؟ » قال : « لا والله لا تروع – لا تخاف – بك مسلمة أبداً » وأمر به فقتل .

لما فتح قتيبة بيكند ، أصاب المسلمون فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يحصى ، وصار في أيدي المسلمين شيء لم يصيبوا مثله بخراسان ، ورجع قتيبة إلى مرو ، وقوي المسلمون فاشتروا السلاح والخيل ، وجلبت إليهم الدواب ، وتنافسوا في حسن

الهيئة والعدة ، وغالوا بالسلاح حتى بلغ الرمح سبعين ديناراً [1] . وكان في الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة ، فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفع ذلك السلاح إلى الجند ، فأذن له ، فأخرجوا ما كان في الخزائن من عدة الحرب وآلة السفر ، فقسمه في الناس ، فاستعدوا ، فلما كان أيام الربيع ، ندب الناس وقال : « إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد ،

---

(١) ولى قتيبه لقسمة الغنائم عبد الله بن وألان العدوى (أحد بني مـلـكان ، وكان قتيبه يسميه الأمين ابنَ الأمين) ومعه إياس بن بيهس الباهلي ، فأذابا الآنية والأصنام فرفعاه إلى قتيبة ، ورفعا إليه خبَثَ ما أذابا (من بقية الذهب غير النقي والأوشاب) فوهبه لهما ، فأعطيا به أربعين ألفاً ، فأعلماه ، فرَجع فيه وأمرهما أن يذيباه ، فأذاباه ، فخرج منه خمسون ألف مثقال . وفي كثرة غنائم هذا اليوم قال الشاعر الكميت :

ويومَ بِيكَنْدَ لا تُحصَى عجائبهُ
وما بُخاراءُ ممّا أخطأ العَـــدَدُ

ساعدت وفرة الغنائم قتيبة على شراء ١٢ ألفاً من جياد الخيل ، و ١٢ ألف هجين . ودفع ثمن كل راحلة ٤ آلاف درهم وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء ، وعندما أخذ في الاستعداد لغزو نومشكت وراميثنه ، قيد الخيول ، واضمرها حتى تذوب شحومها وتصبح اكثر خفة لتجاوز الأنهار وقفز الحواجز والسير في المسالك الوعرة . ثم عهد بهذه الخيول إلى أشرف الفرسان الذين يدفعهم في الطلائع (المقدمات) .

وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الإدفاء (من البرد)، فسار في عُدة حسنة من الدواب والسلاح، فأتى آمل، ثم عبر من زم إلى بخارى، فأتى نومشكت – وهي من بخارى – وذلك بعد أن استخلف على مرو « بشار بن مسلم ».

كان التحرك المبكر لقتيبة غير متوقع، فبوغت أهـل نومُشكَت، مما حملهم على استقبال قتيبة وعقد الصلح معه (في عام ٨٨ هـ = ٧٠٧ م)، ثم سار قتيبة إلى راميثنه، فصالحه أهلها أيضاً، فانصرف عنهم، وزحف إليه الترك، ومعهم السغد وأهل فرغانة، فاعترضوا المسلمين في طريقهم، فلحقوا عبد الرحمن بن مسلم الباهلي وهو على الساقة (المؤخرة)، بينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل واحد، فلما قربوا منه أرسل رسولاً إلى قتيبة يخبره، وغشيه الترك، فقاتلوه، وأتى الرسول قتيبة فرجع بالناس، فانتهى إلى عبد الرحمن وهو يقاتلهم، وقد كان الترك يلحقون بهم الهزيمة، فلما رأى الناس قتيبة، ارتفعت روحهم المعنوية، وصبروا، واستمر القتال حتى الظهر، وأبلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة بلاء حسناً، فهزم الله الترك وفض جمعهم. ورجع قتيبة الى قاعدته (مرو) وقطع النهر من الترمذ إلى بلخ ثم إلى مرو. وقال الباهليون لقي الترك المسلمينَ عليهم (كوربغانون) التركي، ابن أخت ملك الصين في مائتي ألف، فأظهر الله المسلمين عليهم.

بدأ قتيبة عملياته في السنة التالية (٨٩ هـ = ٧٠٨ م) مع اطلالة الربيع، وعبر نهر جيحون عند زم، وتجمع بقوات

الصُغْد[1] وكش ونسف عند بداية المفازة الصحراوية ، وبعد معركة ضارية انتصر المسلمون على التّرك . ومضى قتيبة بالمسلمين حتّى نزل بخرقانة السفلى عن يمين وردان ، فلقوه بجمع كبير ، فقاتلهم يومين وليلتين حتّى ظفر عليهم ثُمّ ان قتيبة غزا (وردان خذاه) ملك بخارى . فلم يتمكن من حسم الصراع معه ، ولم يظفر من البلد بشيء . فرجع إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج : « أن صورها لي » . فبعث إليه بصورتّها (مخططها) . فكتب اليه الحجاج « أن كس بكش ، وانسفْ نسَف ، ورِد ورْدان ، وإياك والتحويط ، ودعني من بنيات الطريق . وارجع الى مراغتك ، فتب إلى الله مما كان منك ، وأتِها من مكان كذا وكذا)[2] .

---

(١) الصغد : ولاية كبيرة عاصمتها سمرقند ، وهي ولاية وعرة المسالك ، اشتهر أهلها بانهم مقاتلون أشداء . ولمزيد من المعرفة يمكن الرجوع إلى (آثار البلاد واخبار العباد ص ٥٤٣) و (معجم البلدان ٣٦٢/٥) و (المسالك والممالك ـ ١٥٢) .

(٢) انسف نسف (بمعنى دمر بلدة نسف) وإياك والتحويط (بمعنى احذر من التردد أو اللجوء إلى الأهداف الثانوية ، وركز على المواقع الهامة) وحوط بمعنى طوق أو ابن حوله حائطاً . وإياك وبنيات الطريق ، (أي أسلك الطريق المستقيم الذي لا تعريج فيه ، وابتعد عن الطرق الفرعية) وارجع إلى مراغتك (أي ارجع إلى بخارى واجعلها هدفاً لك) والمراغه في الأصل : متمرغ الدابة . وأراد الحجاج من قتيبة أن يفتح بخارى ويجعلها قاعدة له ـ ويتقلب فيها كما تتقلب الدابة في مراغتها . (الطبري ، وابن الأثير ـ احداث سنة ٨٩ هـ) .

فتح بخارى (٩٠ هـ = ٧٠٩ م) :

لم تكن أعمال السنوات السابقة في حياة قتيبة بن مسلم أكثر من غزوات استطلاعية ودراسة ميدانية للطبيعة البشرية والطبيعة الجغرافية ، وأساليب القتال الملائمة .

وجاءت رسالة الحجاج . وفيها انتقاص من كفاءة قتيبة وتحذيره له من نقاط ضعف لا يجوز لقائد كقتيبة الوقوع فيها ، فخرج قتيبة لغزاته في عام ٩٠ هـ وهو أكثر تصميماً على بلوغ هدفه .

وكان وردان (ملك بخارى) قد استعد لمجابهة احتمال هجوم قتيبة ، فأرسل في طلب الدعم من الصغد والترك ومن حولهم . وسبق قتيبة وصول الدعم فحصر بخارى وطوق قوات وردان .

عندما وصلت قوات الدعم ، خرجت قوة من المسلمين لقتالها ، فقالت قبيلة الأزد « وقد أرادت شرف مجابهة قوات الدعم وحدها » : « اجعلونا على حدة ــ ناحية ــ وخلوا بيننا وبين قتالهم » فوافق قتيبة ، وتقدمت قبيلة الأزد للقتال ــ وقتيبة جالسٌ ــ عليه رداء أصفر فوق سلاحه ــ فصبروا جميعاً في معركة طاحنة كان التفوق فيها لصالح قوات الدعم ، ولم تلبث هذه القوات أن حطموا صمود الأزد ، واندفعوا في تقدمهم حتى دخلوا معسكر قتيبة وجاوزوه الى منطقة الشؤون

الادارية ومعسكر النساء ، **فخرجت النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو—حتى ضرب النساء وجوه الخيل—وعندئذ تدخل قتيبة ، فأمر المجنبتين**بتطويق قوات الترك وابادتها ، وأسرع هؤلاء بالانسحاب الى منطقة مرتفعة فقال قتيبة : « من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ » فلم يقدم عليهم أحد . والأحياء من العرب كلهم وقوف . فمشى قتيبة إلى بني تميم ، وحضهم على القتال بقوله « يوم كأيامكم » وتقدم وكيع من تميم فحمل الراية ، واستثار قومه ، وسلم الراية لقائد فرسان تميم « هريم بن أبي طلحة المجاشعي » في حين تولى وكيع قيادة قوة المشاة . ووصلت قبيلة تميم بفرسانها ومشاتها إلى نهر واسع ، وتقدم الفرسان بقيادة هريم حتى خاضوا النهر وعبروه إلى الضفة المقابلة ، فيما كان وكيع يجمع الخشب حتى أقام جسراً على النهر ، وقال لأصحابه : « من وطن نفسه على الموت فليعبر ، ومن لا فليثبت مكانه هنا » وعبر الجسر ثمانمائة مقاتل . وسار بالقوة بعد ذلك حتى اقترب من العدو . فأعطى جنده المشاة فترة استراحة قصيرة ، ومضى لتنظيم قواته ، فجعل الخيل على مجنبتيه لحمايتهما . ثم قال لهريم : « إني مُطاعن القوم ، فاشغلهم عنا بالخيل » . وقال للناس : شدوا ، فحملوا فما انثنوْا حتى خالطوهم ، وحمل هريم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح ، فما كفوا عنهم حتى حدَروهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : « أما ترون العدو منهزمين » فأتبعهم الناسُ ، ونادى قتيبة : « من جاء برأس فله مائة » . وانطلق الجند

يعبرون النهر ، وأسرعت قوات الخصم باخلاء ميدان المعركة والانسحاب بسرعة قبل أن تصلهم قوات المسلمين .

كان من نتيجة الهزيمة المنكرة التي نزلت بجيشي الصغد وبخارى ، واصابة خاقان الترك وابنه في المعركة ، أن تقدم ملك السند (طرخون) حتى وصل الضفة المقابلة من نهر جيحون ، وعرض على قتيبة الصلح ، فوافقه قتيبة ، ووقعا اتفاقية الصلح ، وعندما رجع (طرخون) الى بلاده ، رفض أهل مملكته قبول الصلح ، وخلعوه عن الملك ونصبوا ابن أخيه مكانه ، وشعر (طرخون) بالألم لهذا الموقف المتمرد ، فاتكأ على سيفه وانتحر .

وأرسل الملك الجديد رسولاً يعلن رفضه لاتفاقية الصلح المعقودة مع عمه . وفي الوقت ذاته ، كان قتيبة ينظم أمور بخارى ، حتى اذا فرغ منها، رجع إلى مرو ، ومعه نيزك وقد أذهله ما شهده من فتوح ، وأصبح يخاف بأس قتيبة . فقال لأصحابه وخاصته « ... مُتَّهَمٌ أنا مع هذا ، ولست آمنه ، وهو شديد السطوة فاجر ، فلو استأذنته ورجعتُ كان الرأي » . قالوا : « استأذنه » فلما كان قتيبة بآمل ، استأذنه في الرجوع الى تخارستان ، فأذن له ، فلما فارق عسكره متوجهاً إلى بلخ قال لأصحابه : (أغذوا السير) فساروا سيراً شديداً حتى أتوا النوبهار ، حيث قال لأصحابه : إني لا أشك أن قتيبة قد ندم حين فارقنا عسكره على إذنه لي ، وسيقدم الساعة رسوله على

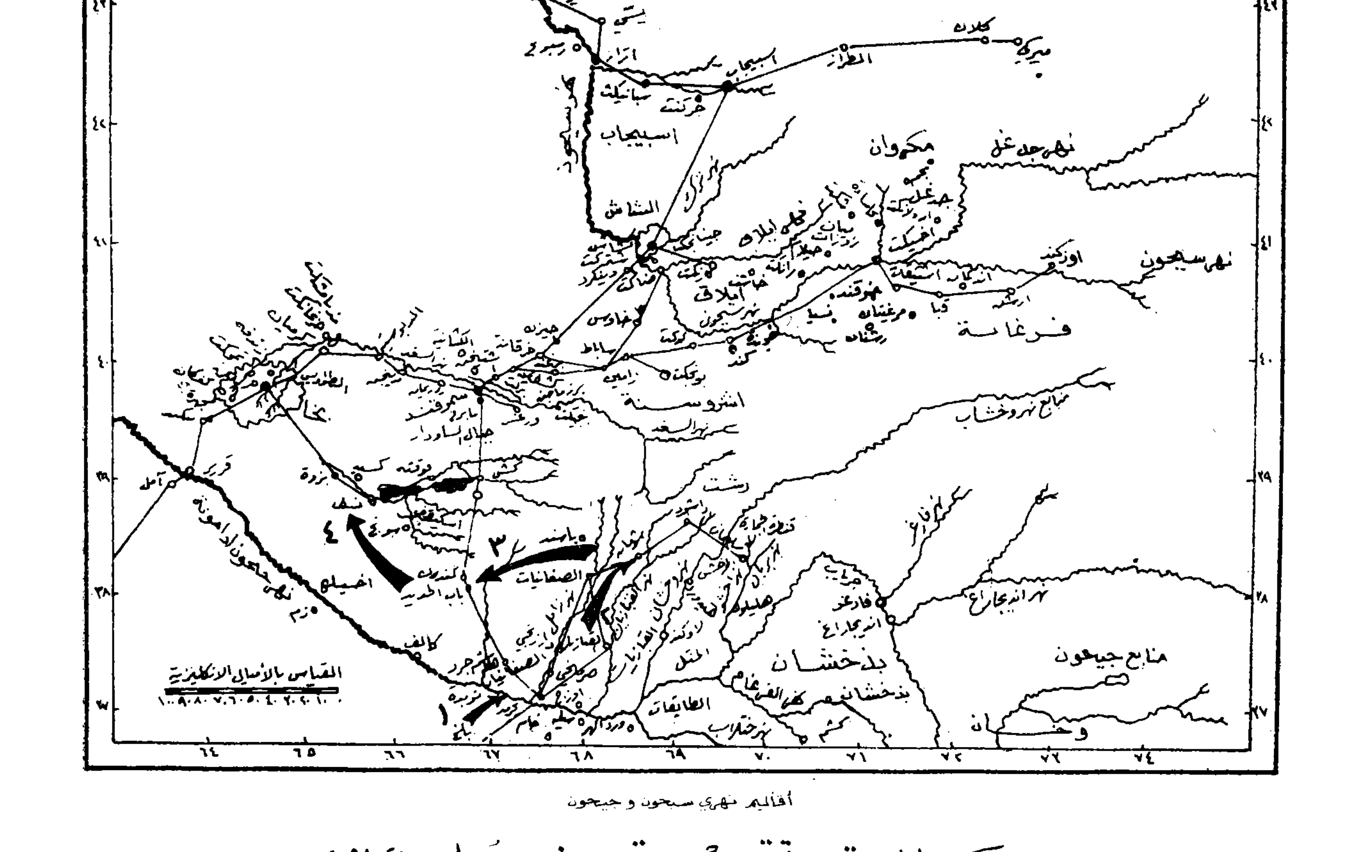
المغيرة بن عبد الله يأمره بحبسي ، فأقيموا ربيئة (نقطة مراقبة) للنظر ، فاذا رأيتم الرسول قد جاوز المدينة ، وخرج من الباب ، فإنه لا يبلغ البروقان حتى نبلغ تخارستان ، فيبعث المغيرة رجلاً فلا يدركنا حتى ندخل شعب خُلُم ففعلوا . ولم تمض سوى فترة قصيرة، حتى أقبل رسولٌ من قبل قتيبة الى المغيرة يأمره بحبس نيزك ، فلما مر الرسول إلى المغيرة وهو بالبرُوقان — ومدينة بلخ يومئذ خراب — ركب نيزك وأصحابه فمضوا ، وقدم الرسولُ على المغيرة فركب بنفسه في طلبه ، فوجده قد دخل شعب خُلُم ، فانصرف المغيرة ، وأظهر نيزك الخلع ، وكتب إلى اصبهبذ بلخ والي باذام ملك مروالروذ والى سهرب (أو سهرك) ملك الطالقان [١] يدعوهم الى خلع قتيبة فأجابوه ، وواعدهم الربيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة [٢] .

كان ملك تخارستان (واسمه جبغويه) ضعيفاً ، فأخذه نيزك ، فقيده بقيد من ذهب مخافة أن يشغب عليه — وجبغويه ملك تخارستان ونيزك من عبيده جعله قائداً لقواته — فلما

---

(١) الطالقان : بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ (آثار البلاد واخبار العباد — ٤٠٢) و (معجم البلدان ٧/٦) .

(٢) أراد نيزك تأمين قاعدته في حال الفشل ، فاتصل بملك كابل (كابول) وبعث إليه بأمواله وكنوزه ، وسأله أن يأذن له ان اضطر إليه أن يأتيه ويؤمنه في بلاده . فأجابه ملك كابل إلى ذلك ، وضم كنوزه وأمواله . (تاريخ الطبري وابن الأثير أحداث سنة ٢٩ هـ) .



أقاليم نهري سيحون و جيحون

استوثق منه وضع عليه حراسة قوية ، وأخرج عامل قتيبة من تخارستان ، وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء ، وقد تفرق الجند فلم يبق مع قتيبة إلا أهل مرو ، فبعث عبد الرحمن أخاه إلى بَلْخ في ١٢ ألف مقاتل ، وكلفه بالتوجه الى البروقان وقال له : « **أقم بها ، ولا تحدث شيئاً ، فاذا حسر الشتاء ، فعسكر وسر نحو تخارستان ، واعـــلم أني قريب منك** » فسار عبد الرحمن فنزل البروقان ، وأمهل قتيبة حتى اذا كان آخر الشتاء ، كتب إلى أبرشهر وبيورد وسرخس وأهل هراة ليقدموا قبل أوانهم الذي كانوا يَقْدمون عليه فيه للغزو والحرب .

كان أول من استجاب لنيزك طرخان ، ملك الطالقان ، واتفق معه على حرب قتيبة ، فلما هرب نيزك من قتيبة ودخل شِعبَ خُلم الذي يصل إلى طخارستان ، علم أنه لا طاقة له بقتيبة ، فهرب ، وسار قتيبة الى الطالقان ، فأوقع بأهلها ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وصلب منهم على امتداد أربعة فراسخ (١٢ ميلاً) في نظام واحد .

مضى فصل الشتاء ، وجاء العام الجديد (٩١ هـ = ٧١٠ م) وقدم أهل أبرشهر وبيورد وسرخس وهراة بجيوشهم على قتيبة ، فسار بالناس الى مرو روذ واستخلف على الحرب حماد بن مسلم ، وعلى الخراج عبد الله بن الأهتم ، وبلغ مرزبان مروروذ اقباله إلى بلاده ، فهرب إلى بلاد الفرس ، وقدم قتيبة مروروذ ، فأخذ ابنين له فقتلهما وصلبهما ، ثم سار الى الطالقان ، فقام

صاحبها ولم يحاربه فكف عنه ، وفيها لصوص ، فقتلهم قتيبة وصلبهم واستعمل على الطالقان عمرو بن مسلم . ومضى إلى الغارياب ، فخرج اليه ملكها مذعناً مقراً بالطاعة ، فرضي عنه ولم يقتل بها أحداً، واستعمل عليها رجلاً من باهلة . وبلغ صاحب الجوزجان خبرهم ، فترك أرضه وخرج الى الجبال هارباً ، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين ، فقبل منهم ، فلم يقتل فيها أحداً ، واستعمل عليها عامر بن مالك الحماني . ثم أتى « بلخ »، فلقيه الاصبهبذ في أهل بلخ. فدخلها فلم يقم بها إلا يوماً واحداً . ثم مضى قتيبة وهو يتبع أخاه عبد الرحمن حتى أتى شعب خُلم، وقد مضى نيزك فعسكر ببغلان ، بعد أن ترك مجموعة من المقاتلين لحماية مضيق الوادي (فم الشعب) وللدفاع عن مداخله وحراستها . كما وضع نيزك حامية من المقاتلين في قلعة حصينة من وراء مضيق الوادي . فأقام قتيبة أياماً يقاتلهم عند مدخل الوادي دون أن ينال منهم أو ينتصر عليهم ، ولم تكن المعلومات المتوافرة لقتيبة تشير إلى وجود محاور للاقتراب سوى طريق الوادي ، وسوى مفازة لا يستطيع المجازفة بدفع الجند لاختراقها ، فوقف في موقعه محاولاً إيجاد مخرج من هذا المأزق ، وفي تلك الفترة ، قدم عليه ملك (الروب وسمنجان) فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة التي وراء هذا الشعب ، فآمنه (أعطاه الأمان) وبعث معه رجالاً في الليل ، فانتهى بهم الى القلعة التي من وراء مدخل الوادي ، فباغتوهم بالهجوم وأبادوا حامية

القلعة ، وهرب من بقي منهم ، ومن كان في الشّعب (مدخل الوادي) فدخل قتيبة والناس الوادي ، وأتى القلعة ، ثم مضى إلى سمنجان ، ونيزك ببغلان عند نبع يعرف باسم (فنج جاه) ولم تكن المفازة بين سمنجان وقرية بَغْلان شديدة الوعورة أو صعبة المسالك .

أقام قتيبة بسمنجان أياماً ، ثم سار إلى نيزك ، وقدم أخاه عبد الرحمن ، وبلغ نيزك ذلك ، فارتحل من منزله حتى قطع وادي (فرغانه) ووجه ثقله وأمواله الى ملك كابول ، ومضى حتى نزل الكرز ، وعبد الرحمن بن مسلم يتبعه ، فنزل عبد الرحمن وأخذ بمضائق (الكرز) ونزل قتيبة أسكيمشست ، بينه وبين عبد الرحمن فرسخان ، فتحصن نيزك في الكرز ، وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد . وكان ذلك الوجه صعباً لا يمكن للفرسان الوصول اليه . فحاصره قتيبة مدة شهرين كاملين ، حتى نفد التموين عند نيزك ، وأصاب جنده الجدري ، وخاف قتيبة الشتاء . فدعا (سُليماً الناصح) وقال له : « **انطلق إلى نيزك ، واحتل لأن تأتيني به بغير أمان، فان أعياك وأبى فآمنه،واعلم أني ان عاينتك وليس هو معكصلبتك، فاعمل لنفسك** » فقال سُليم الناصح « فاكتب لي إلى عبد الرحمن لا يخالفني » قال قتيبة « نعم ، وكتب الى عبد الرحمن بذلك » . وعندما وصل سليم إلى عبد الرحمن ، طلب اليه إرسال مجموعة من الفرسان للتمركز عند مدخل الوادي ، وقال له « ان على هؤلاء الفرسان اعاقتنا عن الوصول الى مدخل الوادي اذا ما

خرجنا أنا ونيزك » . وبعث عبد الرحمن قوة من الفرسان إلى حيث أمرهم سليم ، ومضى سليم وقد حمل معه من الأطعمة ما يكفي أياماً ، حتى أتى نيزكاً . ونصحه بتسليم نفسه الى قتيبة ومحاولة ازالة غضبه « وأن قتيبة لن يبرح موضعه ، وقد صمم على قضاء الشتاء في موقعه ، هلك أو سلم » . وبعد مناقشة طويلة استطاع سليم اقناع نيزك بالتسليم ، لاسيما بعد أن برهن له عن مدى حاجة جنده للطعام عندما عرض ما يحمله عليهم . وقبل نيزك في النهاية ، مرافقة سليم .

وتدخلت قوة الفرسان ، فحالوا بين الأتراك والخروج ، ورافقوا نيزكاً حتى قدموا به الى عبد الرحمن بن مسلم ، فأرسل رسولاً الى قتيبة يعلمه ، فأرسل قتيبة بطلبهم ، فقدمبهم عبد الرحمن عليه ، فحبس أصحاب نيزك ، ودفع نيزكاً الى ابن بسام الليثي ، وكتب الى الحجاج يستأذنه في قتل نيزك ، وفي انتظار ذلك ، جعل ابن بسام نيزكاً في خيمته (قبته) وحفر حول القبة خندقاً ، ووضع عليه حراسة قوية . وجاء كتاب الحجاج بعد أربعين يوماً يأمر بقتل نيزكٍ [١] .

---

(١) عندما جاء أمر الحجاج ، استدعى قتيبة نيزكاً للمثول بين يديه ، وقال له ، هل لك عندي عقد أو عند عبد الرحمن أو عند سليم ؟ قال لي عند سليم ، قال : كذبت ، وقام ، ورد نيزكاً إلى حبسه ، ومكث قتيبة ثلاثة أيام لا يظهر للناس . وقام المهلب ابن اياس العدوي ، وتكلم في أمر نيزك، فقال بعضهم : ما يحل له أن يقتله، وقال =

عمل قتيبة بعد ذلك على اعادة تنظيم الادارة في تخارستان ، وأطلق سراح ملكها جغبويه ، وأرسله الى الوليد، فلم يزل بالشام حتى مات الوليد ، ورجع قتيبة الى مرو ، واستعمل أخاه عبد الرحمن على بلخ ، وأرسل إلى الحجاج بالخراج وباخبار الفتح ، فكان ما يردده الحجاج دائماً : « **بعثت قتيبة فتىً غِراً ، فما زدته ذراعاً إلا زادني باعاً** » .

ما أن استقر قتيبة في مرو ، حتى وصله طلب أمان من ملك الجوزجان — وكان قد هرب عن بلاده تأييداً لنيزك ، ثم تراجع عن موقفه عندما علم بمصرعه — فآمنه قتيبة على أن يأتيه فيصالحه . فطلب رهناً يكونون في يديه ويعطي رهائن مقابل ذلك . فأعطى قتيبة حبيب بن عبد الله بن عمرو بن حصين

= بعضهم : ما يحل له تركه ، وخرج قتيبة في اليوم الرابع ، فجلس وأذن للناس فقال : ما ترون في قتل نيزك ؟ فاختلفوا ، فقال قائل : اقتله ، وقال قائل : أعطيته عهداً فلا تقتله ، وقال قائل ما نأمنه على المسلمين ، ودخل ضرار بن حصين الضبي ، فقال : ما تقول يا ضرار ، قال : « اني سمعتك تقول : أعطيت الله عهداً إن امكنك منه أن تقتله ، فان لم تفعل لا ينصرنك الله عليه أبداً . فأطرق قتيبة طويلاً ، ثم قال : والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات ، لقلت اقتلوه ، اقتلوه ، اقتلوه ، وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وقتل أصحابه . فقال المغيرة بن حبناء كلمة طويلة في مديح عمل قتيبة مطلعها :

لعَمْري لَنِعَمتْ غَزْوةُ الجند غزوة
قضتْ نحبها من نيزك وتعلّت .

الباهلي ، وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته. فخلّف ملك الجوزجان حبيباً بالجوزجان في بعض حصونه ، وقدم على قتيبة فصالحه ، ثم رجع فمات بالطالقان مسموماً ، وقتل أهل الطالقان حبيباً ، فما كان من قتيبة إلا أن قتل الرُهُن الذين كانوا عنده [1] .

غزو شومان وكس ونسف (٩١هـ) :

أفاد ملك شومان « قيسلشتان » من الاضطراب الذي أثاره غدر نيزك ، فطرد عامل قتيبة ، ومنع الفدية الّتي كان قد صالح عليها قتيبة ، فبعث إليه قتيبة رسولاً وهو « عياش الغنوي » ومعه رجلٌ من نُساك أهل خُراسان يدعوان ملك شومان إلى أن يؤدي الفِدية على ما صالح عليه قتيبة ، فقدما البلد ، فخرجوا اليهما فرموهما ، فانصرف الرجل ، وأقام عياش الغنوي .

---

(١) وفي ذلك قال نهار بن توسعه :

أراك اللهُ في الأتراك حكماً ... كحُكمِهِم في قُرَيظَةَ والنّضير
قضاءً من قتيبة غَيْرُ جوْر ... به يُشْفى الغليل من الصدور
فإن يَرَ نيزك خزياً وذُلاً ... فكم في الحرب حُمّقٌ من أمير

وقريظة والنضير : قبيلتان يهوديتان ، غدرتا بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد ميثاقهما ، فعاقبهما الرسول قبل غزوة الأحزاب (الخندق) وذلك باخراجهما من المدينة . وابادة المقاتلين ممن آذوا المسلمين . (احداث سنة ٨ هـ) .

فقال : «أما ها هنا مسلم ! »فخرج إليه رجل من المدينة فقال : «أنا مسلم ، فما تريد ؟»قال : « تعينني على جهادهم » قال : نعم . فقال له عيّاش : « كن خلْفي لتمنعَ لي ظهري»، فقام خلفه – وكان اسم الرجل المهلب – فقاتلهم عياش ، فحمل عليهم ، فتفرقوا عنه ، وحمل المهلب على عياش من خلفه فقتله ، فوجدوا به ستين جراحة ، فغمهم قتله . وقالوا : « قتلنا رجلاً شجاعاً » .

بلغ قتيبة ما فعله أهل شومان بسفيريه، فسار اليهم بنفسه ولما تكد قواته تأخذ قسطها من الراحة بعد قتال نيزك، وأخذ طريق بلخ بعد أن دفع أخاه عبد الرحمن لقيادة مقدمته ، وكان ملك شومان صديقاً لصالح – أخو قتيبة – فأرسل اليه صالح رجلاً يأمر بالطاعة ، ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح ، فأبى وقال: « ما تخوفني به من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصناً، أرْمي أعلاه ، وأنا أشد الناس قوساً ، وأشد الناس رمياً ، فلا تبلغ نشابتي نصف حصني ، فما أخاف من قتيبة » . فمضى قتيبة من بلخ ، فعبر النهر ، ثم أتى شومان وقد تحصن ملكها ، فوضع عليه المجانيق ، ووضع منجنيقاً كان يسميها (الفحجاء) فرمى بأول حجر ، فأصاب الحائط ، ورمى بآخر فوقع في المدينة ، ثم تتابعت الحجارة حتى دمر الحصن ، وخاف ملك شومان من الوقوع في قبضة قتيبة ، ورأى ما نزل به، فجمع ما كان عنده من مال وجوهر ، فرمى

به في عين في وسط القلعة لا يدرك قعرها ، ثم جمع قواته ، وفتح أبواب القلعة ، وخرج الى المسلمين فقاتلهم حتى قتل ، ودخل قتيبة القلعة بعد أن فتحها عنوة ، فقتل المقاتلة ، وسبى الذرية ، ثم رجع الى كِس ونسف ، ثم مضى الى بخارى . ثم سار الى طرخون بالصغد ليقبض منه ما كان صالحه عليه ، فلما أشرف على وادي الصغد ، توقف هناك ، وقبض من طرخون صلحه ، وعاد متبعاً محور — بخارى — آمل — مرو .

كانت عمليات السنة التالية ، سهلة هينة ، فقد غزا قتيبة سجستان [1] يريد « رُبتيل الأعظم والزابل » فلما نـــزل سجستان ، استقبلته رسل رُبتيل بالصلح ، فقبل ذلك وانصرف ، واستعمل عليهم ربة بن عبد الله بن عمير الليثي ، وعاد إلى مرو .

صلح قتيبة مع ملك خوارزم شاه [2] وفتح خام جرد — ٩٣ هـ :

كان ملك خوارزم « الآرال حالياً » ضعيفاً ، فغلبه أخوه

---

(١) سجستان : ناحية كبيرة ، وولاية واسعة ، يحدها شرقاً صحراء — مفازة — بين مكران وأرض السند واللتان ، وتقع خراسان والهند إلى غربها ، كما يحدها جنوباً الصحراء الممتدة بين سجستان وفارس وكرمان (لمزيد من المعلومات راجع آثار البلاد واخبار العباد ٢٠١ وتقويم البلدان ٣٤٠ والمسالك والممالك للاصطخري ١٣٩ ومعجم البلدان ٣٧/٥) .

(٢) خوارزم (الآرال) : اسم اقليم يحده من الشمال والغرب — الغزيه =

« خرذاذ » على أمره ــ وخرذاذ أصغر منه ــ فكان إذا بلغه أن عند أحد من مواطني مملكته جارية أو دابة أو متاعاً فاخراً أرسل فأخذه ، أو بلغه أن لأحدهم منهم بنتاً أو أختاً أو امرأة جميلة أرسل اليه فغصبه ، وأخذ ما شاء ، وحبس ما شاء ، لا يمتنع عليه أحد ، ولا يستطيع الملك منعه أو تأديبه . وكثيراً ما رفع الناس ظلاماتهم للملك فكان يقول « لا أقوى عليه » .

وزاد الأمر على الملك حتى ملأه غيظاً ، فلما طال الأمر عليه ، كتب الى قتيبة يدعوه إلى أرضه حتى يسلمها له ، وبعث إليه بمفاتيح مدائن خُوارزم وهي ثلاثة مفاتيح من ذهب ، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه ، وكلّ من يضاده أو يقاومه ، ليحكم فيه بما يرى . وبعث في ذلك رسلاً ، ولم يطلع أحداً من معاونيه ومستشاريه (مرازبته ودهاقينه) على ما كتب به إلى قتيبة . فقدمت رسله على قتيبة في آخر الشتاء ووقت الغزو ، وقد تهيأ للحرب واستعد لها ، فأظهر قتيبة أنه يريد التوجه إلى الصغد . ورجع سفراء خوارزم شاه إليه بما يحب من قبل قتيبة ، وسار بعد أن استخلف على مرو ــ ثابتاً الأعور مولى مسلم ــ وجمع ملك خوارزم ملوكه ، وأحباره ــ كهنته ــ ومستشاريه ، وخدعهم بقوله « ان المعلومات المتوافرة له تؤكد أن قتيبة يريد الصغد ، ولا يريد الهجوم على خوارزم شاه » فانصرف أهل

= ومن الجنوب والشرق خراسان وما وراء النهر (المسالك والممالك للاصطخري ص ١٤٥ ومعجم البلدان ٤٠٧/٣) .

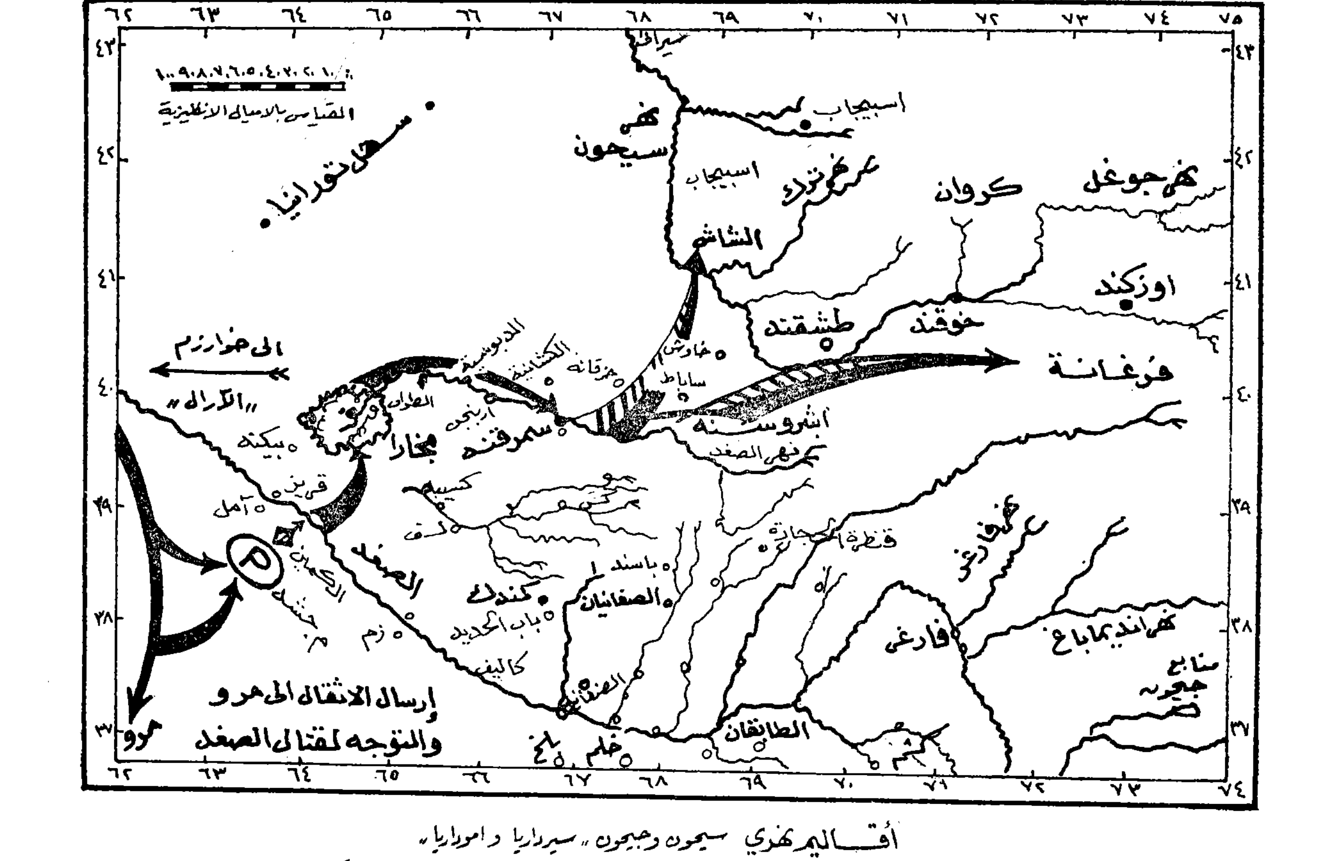
خوارزم عن الاستعداد للحرب . ولم يشعروا باقتراب الخطر منهم الا عندما نزلت قوات المسلمين في هزارسب — دون النهر — واجتمع أصحاب الملك لمناقشة الموقف ، وطالبوا بالتعرض لقتال قتيبة، ولكن الملك قاوم هذا الاتجاه عندما قال لهم « اني لا أرى ذلك ، فقد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ، ولكنني أرى أن نصرفه بشيء نؤديه اليه، فنصرفه عامنا هذا ، ونرى رأينا » فوافقوه على رأيه ، فأقبل خوارزم شاه ، فنزل في مدينة الفيل من وراء النهر « وكانت مدائن خوارزم الرئيسية ثلاثة لكن فيل كانت أكثرهن منعة وقوة وتحصيناً » وبقي نهر بلخ هو الفاصل بين مواقع قوات قتيبة في هزارسب . ومكان نزول ملك خوارزم في « فيل » وتم الصلح على ١٠ آلاف رأس وعين ومتاع ، بشرط أن يساعده على ملك خام جرد ، وأن يفي له بما كتب إليه، فقبل ذلك منه قتيبة، ووفى له . إذ بعث قتيبة أخاه إلى ملك خام جرد — الذي كان يناصب خوارزم شاه العداء ، فقاتله ، فقتله عبد الرحمن واجتاح حدود بلاده ، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير ، فقتلهم . ودفع قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه ، فقتلهم وصادر أموالهم ، وبعث بها الى قتيبة . ودخل قتيبة مدينة فيل ، فقبل من خوارزم شاه ما صالحه عليه ثم رجع إلى هزارسب .

يوم سمرقند : ٩٣ هـ [١] :

ما أن أمضى قتيبة الصلح مع حاكم خوارزم (ملكها) حتى تقدم إليه المجشر بن مزاحم السلمي وطلب التحدث اليه على انفراد ، وعندما تم له ذلك قال المجشر لقتيبة : « إن أردت السغد يوماً من الدهر . فالآن ، فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا ، وانما بينك وبينهم عشرة أيام » وسأله قتيبة : « هل أشار بهذا عليك أحد ؟ » وأجابه المجشر بالنفي . وعاد يسأله : « وهل أعلمته أحداً ؟ » فأجاب المجشر بالنفي أيضاً . وعندها قال له قتيبة : « والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك » . ثم ان قتيبة أقام يومه ، فلما أصبح من الغد دعا عبد الرحمن فقال : « سر في الفرسان والمُرامية . وقدم الاثقال إلى مَرْو » ومضى عبدُ الرحمن يتبع الأثقال يريد مَرْو يومَه كله ، فلما أمسى كتب اليه : « إذا أصبحتَ فوجه الأثقال إلى مَرْو ، وسر في

---

(١) كانت سمرقند عاصمة اقليم السغد (ازبكستان حالياً) وهي تقع في موقع متوسط من الاقليم ، تستند إلى جبال آلاي المتفرعة عن هضبة التيبت ، وقد عني بها ملوك السغد فحصنوها تحصيناً جيداً ، ونظراً لوعورة مسالكها وصعوبة الوصول اليها ، فانه لم يفكر أحد من قادة المسلمين باحتلالها قبل قتيبة ، ورضي الولاة والقادة بالصلح معها ، وكانت سمرقند تصالح وتنتقض باستمرار ، وبقيت مركزاً رئيسياً من مراكز الثورة على المسلمين ، ومحوراً أساسياً في كل تحالف عسكري ضد جيوش العرب المسلمين .



أقـاليم نهري سيحون وجيحون "سيرداريا وامورداريا"

الفُرسان والمُرامية نحو السُغد ، واكتم الأخبار ، فإني بالأثر — أتبعك » . ولما وصلت الرسالة ، أمر عبد الرحمن أصحاب الأثقال أن يمضوا إلى مَرْوَ ، وسار حيث أمره ، وخطب قتيبة الناس فقال : « إن الله قد فتحَ لكم هذه البلدة في وقت الغَزْوُ فيه ممكن . وهذه السغد شاغرة برجلها (رجالها) قد نقضوا العهد الذي كان بيننا ، ومنعونا ما كنا صالَحْنا عليه طرخون ، وصنعوا به ما بلغكم . وقال الله :﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ على نفسه﴾، فسيروا على بركة الله ، فاني أرجو أن يكون خوارزم والسغد كالنضير وقريظة . وقال الله :﴿وأُخرَى لَمْ تَقْدِروا عَلَيهَا قد أحَاطَ اللهُ بِهَا ﴾.[1] ووصل قتيبة إلى السغد وقد سبقه إليها عبد الرحمن بن مسلم في ٢٠ ألفاً ، وقدم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبُخارى بعد ثلاثة أيام من نزول عبد الرحمن بهم فقال : إنا اذا نزلنا بساحة قوم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ المُنذَرِينَ ﴾ [2] وبدأت مرحلة حصار السغد التي استمرت شهراً ، حدثت خلاله مجموعة من المعارك والاشتباكات في قطاع واحد .

اشتد الحصار على أهل السغد ، وخافوا طول الحصار ، فكتب غَوْزَك ملك السغد رسائل الى ملك الشاش وإخشاذ فرغانه وخاقان الترك جاء فيها « إنا نحن دونكم ، فيما بينكم وبين العرب ، إن ظفروا بنا عادوا فأغاروا عليكم بمثل ما أتونا به ،

---

(١) سورة الفتح ، الآية ٢١ .
(٢) سورة الصافات ، الآية ١٧٧ .

وأصبحتم – أضعف وأذل – فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها » .

واستجاب الملوك لدعوة غوزك ملك السغد ، وطلبوا اليه مقاومة العرب وخداعهم حتى يباغتوا العرب . واجتمع هؤلاء الملوك، فقالوا « إنما نؤتى من سفلَتِنا، وإنهم لا يجدون لَوَجدنا، ونحن معشر الملوك المعنيون بهذا الأمر ، فانتخبوا أبناء الملوك وأهل النجدة من فتيان ملوكهم ، فليخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة – مباغتة – فإنه مشغول بحصار السغد » . وانتخبوا فرساناً من أبناء المرازبة ، والأساورة الأشداء الأبطال . وولوا عليهم ابناً لخاقان ملك الترك ، وأمروهم أن يباغتوا قتيبة بهجوم ليلي . وبلغ قتيبة ذلك ، فانتخب أهل النجدة والبأس حتى بلغ عددهم أربعمائة ثم جمعهم وقال لهم « ان عدوّكم قد رأوا بلاء الله عندكم . وتأييده اياكم في مزاحفتكم ومُكاثرتكم. كل ذلك يُفلجكم (لينصركم) الله عليهم . فأجمعوا على أن يحتالوا عزتكم وبيّاتكم (ليباغتوكم بهجوم ليلي) واختاروا دهاقينهم وملوكهم، وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم، وقد فضلكم الله بدينه، فأبلوا الله بلاء حسناً تستوجبون به الثواب – مع الذّبّ عن أحسابكم » . ووضع قتيبة عيوناً (جواسيس) على العدو حتى اذا قربوا منه قدر ما يصلون إلى عسكره من الليل ، دفع الذين انتخبهم ، بعد أن حضهم على القتال . واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من المعسكر عند المغرب ، فساروا ونزلوا على فرسخين من العسكر عن طريق القوم الذين وصفوا

لهم . ففرق صالح خيله ، وأكمن كميناً عن يمينه ، وكميناً عن يساره ، وأقام مع مجموعة من الفرسان على قارعة الطريق ، حتى اذا مضى نصف الليل أو ثلثاه ، جاء العدو باجتماع واسراع وصمت ، وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة ، ولم يعلموا بمكان صالح حتى اصطدموا به ، حتى اذا اختلفت الرماح ، واشتدت المعركة ، خرج الكمينان عن يمين وشمال فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى قال أحد الذين اشتركوا في قوة الكمين : « حصرناهم ، فما رأيت قط قوماً كانوا أشد قتالاً من أبناء أولئك الملوك ، ولا أصبر ، فقتلناهم فلم يفلت منهم الا نفر يسير وحوينا سلاحهم ، واحتززنا رؤوسهم ، وأسرنا منهم أسرى ، فسألناهم عمن قتلنا فقالوا : ما قتلتم إلا ابن ملك ، أو عظيماً من العظماء ، أو بطلاً من الأبطال ، ولقد قتلتم رجالاً إنْ كان الرجل ليعدل بمائة رجل ». وقال مقاتل آخر : « إنا لنختلف عليهم بالطعن والضرب ، إذ تبينت تحت الليل قتيبة ، وقد ضربت ضربة أعجبتني وأنا أنظر الى قتيبة . فقلت : (كيف ترى بأبي أنت وأمي ! قال : اسكت دقَ الله فاك) قال : فقتلناهم ، وأقمنا نحوي (نجمع) الأسلاب ونحتز الرؤوس حتى أصبحنا . ثم أقبلنا على المعسكر ، فلم أر جماعة قط جاؤوا بمثل ما جئنا به ، ما منا رجل إلا معلق رأساً معروفاً باسمه وأسير في وثاقه . مع ما سلبنا من جيد السلاح وكريم المتاع ومناطق الذهب ودوابَ فُرَّهَة . فنفلنا قتيبة ذلك كله . وقال (جزاكم الله عن الدين والأعراض خيراً)

وأكرمني قتيبة من غير أن يكون باحَ لي بشيء ، وقرن بي في الصلة والاكرام حيانَ العدوي وحُلياً الشيباني ، فظننت أنه رأى منهما مثلَ الذي رأى مني . وكسر ذلك أهل السغد ، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية ، فأبى ، وقال : أنا ثائر بدم طَرْخون ، كان مولاي ، وكان من أهل ذمتي » .

استمرت الحرب ، وأخلص أهل بخارى وأهل خوارزم القتال الى جانب قتيبة ، فأرسل غوزك ملك السغد الى قتيبة يقول له : « انما تقاتلني بإخوتي ، وأهل بيتي من العَجَم ، فأخْرجْ إليَّ العرب » فغضب قتيبة ودعا الجدلي ، فقال : « اعرض الناس وميِّز أهل البأس » فجمعهم ، ثم جلس قتيبة يعرضهم بنفسه ودعا العُرفاءَ فجعل يدعو برجل رجل ، فيقول : ما عندك ؟ فيقول العريف شجاع . ويقول : ما هذا ؟ فيقول : مختصر ، ويقول : ما هذا ؟ فيقول : جبان . فسمى قتيبة الجبناء الأنتان وترك لهم رث السلاح ، ثم زحف بهم فقاتلهم بهم فرساناً ورجالاً . واستمر الصراع بين الفرسان في حين برز قتيبة بسريره ، وقعد عليه ليتابع المعركة ، وحمل السغد على المسلمين حملة حطموهم حتى جازوا عسكرهم ، وقتيبة محتب بسيفه ما حَلَّ حبوته ، وانطوت مجنبتا المسلمين على الذين هزموا القلب ، فهزموهم حتى ردوهم إلى عسكرهم ، وقتـــل من المشركين عدد كبير . ودخلوا مدينة سمرقند وتحصنوا بها ، ورمى قتيبة المدينة بالمجانيق ، فثلَم ثلمة . فسدوها بغرائز

الدخن . وأطال قتيبة المقام . واستمر في رمي سمرقند بالمنجنيق ، فثلم فيها ثلمة .

وقال قتيبة : (ألحوا عليها حتى تعبُروا الثلمة) فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة ورماهم السغد بالنشاب ، فوضعوا ترسهم . فكان الرجل يضع ترسه على عينه ثم يحمل حتى صاروا على الثلمة ، فقالوا له : انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غداً وأجاب قتيبة : « لا نصالحهم إلا ورجالُنا على الثلمة ، ومجانيقنا تخطر على رؤوسهم ومدينتهم » . وفشل اقتحام الثغرة (الثلمة) ووقف عليها رجل وهو يشتم قتيبة بالعربية الفصحى ؛ وأسرع المسلمون نحو الرجل وهو ملح بالشتم ، في حين كان قتيبة محتب بشملة وهو يردد كالمناجي لنفسه « حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ! أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية » وسمعه أحد القادة ، فانصرف عن قتيبة ، وانضم الى أصحابه ليقول لهم « كم من نفس أبية ستموت غداً منا ومنهم ! » ، ثم ان قتيبة التفت إلى من حوله وقال لهم : اختاروا منكم رجلين ، فاختاروا ، فقال : أيكما يَرمي هذا الرجل ، فإن أصابه فله عشرة آلاف ، وإن أخطأه قطعت يده ؟ فتلكأ أحدهما ، وتقدم الآخر ، فرماه ، فلم يخطىء عينه ، وقال هذا الرامي (وهو خالد بن باب مولى مُسلم بن عمرو) : « كنت في رماة قتيبة ، فلما افتتحنا المدينة صعدت السور ، فأتيت مُقام ذلك الرجل الذي كان فيه ، فوجدته ميتاً على الحائط ، ما أخطأت النُشابة عينه حتى خرجت من قفاه » ثم

أصبح المسلمون من غد فرموا المدينة ، فثلموا فيها . وقال قتيبة ، ألحوا عليها حتى تعبروا الثلمة (الثغرة) .

وحمل المسلمون بقوة ، فدخلوا مدينة سمرقند ، فصالحهم أهلها . واشترط قتيبة أن يسلمه أهل سمرقند ٣٠ ألف كرهينة في قبضته ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب ، كما اشترط اخلاء المدينة من كل مقاتل ، وأن يبنى له فيها مسجد فيدخل ويصلي ، ويوضع له فيها منبر فيخطب ، ويتغدى ويخرج . ونفّذ أهل سمرقند شروط قتيبة ، فقال : « الآن ذلوا حين صار إخوانهم وأولادهم في أيديكم » ودخل قتيبة سمرقند فصلى وخطب ثم تغدّى . وأرسل إلى أهل السغد « من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذه فاني لست خارجاً منها ، وإنما صنعت هذا لكم ، ولستُ آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، غير أن الجند يقيمون فيها » . وبعد ذلك جمع قتيبة ما تحتويه بيوت النيران وحلية الأصنام ، فكانت كالقصر العظيم حين جمعت ، فأمر بتحريقها ، فقالت الأعاجم : إن فيها أصناماً من حرقها هلك ، فقال قتيبة . أنا أحرقها بيدي . ودعا قتيبة بالنار ، وأخذ شعلة بيده ، وخرج فكبر ، ثم أشعلها ، وأشعل الناس ، فاضطرمت ، فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال . وتلى قتيبة (وأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الأولَى . وثَمُودَ فَمَا أبْقَى) [1] .

(١) سورة النجم الآية ٥٠ و ٥١ .

ارتحل قتيبة راجعاً إلى مرو واستخلف على سمرقند عبد الله ابنَ مسلم ، وخلف عنده جنداً كثيفاً ، وآلة من آلات الحرب كثيرةً ، وقال : « لا تدعنَّ مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد ، وإن جفت الطينة قبل أن يخرج فاقتله . وإن وجدت معه حديدة أو سكيناً فما سواه فاقتله . وإن أغلقت الباب ليلاً ، فوجدت فيها أحداً منهم فاقتله »[1] .

---

(١) لما فتح قتيبة سمرقند ، وقف على جبلها فنظر إلى الناس متفرقين في مروج السغد ، فتمثل قول طرَفة بن العبد :

وأرْتَعَ أقوام ولولا مَحَلُّنــــا
بمخشيةٍ ردُّوا الجمال فَقَوَّضُوا

ودعا قتيبة نهارَ بن توسعة حين صالح أهلَ السغد ، فقال يا نهار أين قولك :

ألا ذهب الغزو المُقرِّبُ للغــــنى
ومات النّدى وَالجودُ بعد المهلب

أقاما بِمَرو الرُّوذ رهن ضريحـــه
وقد غُيِّبا عن كل شرق ومغرب

أفغزوٌ هذا يا نهار ؟ قال . لا ، هذا أحسن ــ ان الذي أنت فيه ليس بالغزو ولكنه الحرب ، وأنا الذي أقول :

وما كان مُذ كنا ولا كان قبلنــا
ولا هو فيما بعدنا كابن مُسلــم

أعمَّ لأهل الترك قتلاً بسيفــــه
وأكثر فينا مَقْسِماً بعدَ مقسم

(الشعر والشعراء ــ ٥٢٣)

كان قتيبة قد عين اياس بن عبد الله بن عمرو لقيادة القوات المحاربة في خوارزم ، كما عين على خراجها عبيد الله بن أبي عُبيد الله مولى بني مسلم ، وقد وجد أهل خوارزم في إياس ضعفاً أطمعهم فيه ، فجمعوا له ، فكتب عبيد الله إلى قتيبة يستنجده ، فبعث قتيبة عبد الله بن مسلم في الشتاء عاملاً . وقال له : « اضرب إياس بنَ عبد الله وحيّان النبطي مائة مائة . واحلقهما ، وضم إليك عبيدَ الله بن أبي عبيد الله مولى بني مسلم ، واسمع منه ، فإن له وفاءً » فمضى حتى إذا كان من خوارزم على مسافة قريبة ، أرسل إلى إياس من ينذره للتنحي عن السلطة ، وقَدِمَ فأخذ حيان فضربه مائة وحلَقَهَ . ثم وجه قتيبة بعد عبد الله ، المغيرةَ بن عبد الله في الجنود إلى خوارزم ، فبلغهم ذلك ، فلما قَدِم المغيرةُ اعتزل أبناء الذين قتلهم خوارزم شاه ، وقالوا لا نعينك ، فهربوا إلى بلاد الترك ، وقدم المغيرة فسبى وقَتَل وصالحه الباقون ، فأخذ الجزية . وقَدِم على قتيبة ، فاستعمله على نيسابور .

غزو الشاش وفرغانه ٩٤ و ٩٥ هـ [1] :

انطلق قتيبة لمتابعة فتوحاته في بداية فصل الربيع كعادته

---

(١) اقليم الشاش هو الاقليم الذي يقع شمالي نهر سيحون (سيرداريا حالياً) وهو اقليم جبلي يعتبر امتداداً لسلسلة جبال تيان شان وتقع=

(عام ٩٤ ﻫ) ، ولما أن عبر نهر سمرقند فرض على أهل بخارى وكس ونسف وخوارزم تقديم ٢٠ ألف مقاتل ، ثم سار بهم إلى السغد ودفعهم إلى الشاش ، في حين تابع تقدمه بقواته إلى فرغانه ، وعندما وصل خجندة ، اصطدم بمقاومة قوية نظمها أهل خجندة ، ودارت معارك مستمرة كانت قوات المسلمين تخرج كل يوم منها بانتصارات جزئية دون الوصول إلى نصر حاسم ، وفرغ الناس من قتالهم ذات يوم ، فركبوا خيولهم وانتشروا في كل مكان ، فوصل منهم رجل إلى موقع مرتفع يشرف على السهل، ونظر فيما حوله فقال لصاحب له : « تالله ما رأيت كاليوم غرة ، لو كان هيج (قتال) اليوم ونحن على ما أرى من الانتشار لكانت الفضيحة ، فقال له صاحبه : كلا ، نحن كما قال عوف بن الجزع :

نـؤم البلاد لحب اللّقـــا ولا نتقي طائراً حيث طارا
سنيحاً ولا جارياً بارحــاً على كل حال نلاقي النسارا

= طاشقند في مركز الاقليم . أما فرغانه فهو اسم مدينة واسم الاقليم أيضاً الذي يمتد فيما وراء نهر سيحون ويتاخم التّركستان ، وهذا الاقليم بدوره جبلي ويتفرع عن التيبت ويعرف حالياً باسم جبل آلاي . وتشكل فرغانه حالياً القسم الشرقي من ازبكستان . (لمزيد من المعلومات الجغرافية والتاريخية يمكن الرجوع إلى آثار البلاد واخبار العباد ــ ٢٣٥ ، والمسالك والممالك ص ١٦٦ ومعجم البلدان ٣٤٦/٦) .

ثم أتى قتيبة كاشان (مدينة تابعة لفرغانة) . وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاش وقد فتحوها وحرقوا أكثرها ، وانصرف قتيبة إلى مرو .

كان والي العراق ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، يتابع عمليات قادته في أقصى الشرق ، حيث كان محمد بن القاسم الثقفي قد فتح السند (باكستان) وأخذ في فتح الهند ، وقد عرف الحجاج أن قتيبة في حاجة لمزيد من الدعم حتّى يستطيع متابعة فتوحاته ، فأرسل الحجاج إلى محمد بن القاسم أمراً جاء فيه : « وجه مَنْ قبلك من أهل العراق إلى قتيبة ، ووجه عليهم جَهْم ابن زحر بن قيس ، فانه في أهل العراق خيرٌ منه في أهل الشام » ومضى جهم بن زَحْر إلى قتيبة ، وأصبحت فتوح قتيبة من نصيب أهل العراق ، فيما بقيت فتوح السند والهند من نصيب أهل الشام .

وصل جيش العراق بقيادة زَحَرْ إلى مرو في عام ٩٥ هـ ، وقتيبة يستعد لهجومه السنوي . وانطلق قتيبة حتّى وصل الشاش (أو بكشُماهن) وهناك بلغه موت الحجاج ، فَغَمَهُ ذلك وقفل راجعاً[١] ووزع قواته فترك قوة في بخارى ، ووجه قوة

---

(١) حزن قتيبة لموت الحجاج حتّى تمثل قول الشاعر الحطيئة في رثاء علقمة بن علاثه :

لعمري لنِعمَ المرءُ من آل جعفر
بحوران أمسى أعلقته الحبائِلُ=

أخرى الى كس ونسف ، ثم أتى مرو فأقام بها . ومكث ينتظر تعليمات أمير المؤمنين ، ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى جاءه كتاب الوليد بن عبد الملك يحضه على متابعة الجهاد وفيه :

(قد عرف أميرُ المؤمنين بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين ، وأمير المؤمنين رافعُك وصانع بك كالذي يجب لك ، فالمم مغازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك ، حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه) .

وهكذا أقر الوليد العمال الذين كان الحجاج قد عينهم ، وكان ذلك حافزاً لقتيبة حتى يتابع فتوحه .

= فإن تَحيَّ لا أملل حياتي وإن تمت
فما في حياة بَعْدَ موتك طائل .
(ديون الحطيئة ـ ١٠٠ ـ وتاريخ الطبري ٤٩٢/٦) .

نهاية فتوح قتيبة (– فتح كاشغر – وغزو الصين ٩٦ ﻫ) :

غادر قتيبة بجيشه قاعدة عملياته في مرو ، وعندما وصل الى فرغانة بلغه موت أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وانتقال الامارة الى أخيه سليمان ، فتوجس قتيبة شراً لوجود بغضاء بينهما ، وقرر اتخاذ ما هو ضروري من تدابير لتأمين عائلته ، خوفاً من البطش بهم فنقلهم إلى سمرقند ، ووضع على نهر جيحون رجلاً من مواليه يقال له الخوارزمي ، وكلفه باقامة مركز مراقبة عند مقطع النهر ، ومنع المرور إلا لمن يحمل اذناً بالعبور من قبل قتيبة ، ثم انه أرسل قوة استطلاع لارتياد شعب عصام ، وتمهيد الطريق للتقدم نحو كاشغر وهي أدنى مدائن الصين . ومضى قتيبة بعد ذلك فأوغل في تقدمه حتى قرب من الصين . فكتب إليه ملك الصين « أن ابعث إلينا رجلاً من أشراف مَنْ معكم يخبرنا عنكم ، ونسائله عن دينكم ». فانتخب قتيبةُ من عسكره اثني عشر رجلاً من أبناء القبائل ، لهم جمالٌ وأجسام وألسن وشعور وبأس ، بعد ما سأل عنهم ، فوجدهم من أفضل الرجال الذين يمكن اعتمادهم . وتحدث اليهم ، فتأكد من صحة انتقائهم رجولة ورجاحة عقل ، فأمر لهم بعدة حسنة من السلاح والمتاع الجيد من الخز والوَشي واللين من البياض والرقيق والنعال والعطر ، وحملهم على خيول مطهّمة تقاد معهم ، ودواب يركبونها . وكان هبيرة بن المشمرج الكلابي

مفوهاً ، زلق اللسان ، فقال يا هبيرة ، كيف أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير ! قد كُفيتَ الأدب وقل ما شئت أقله ، وآخذ به ، قال : « سيروا على بركة الله ، وبـالله التوفيق ــ لا تضعوا العمائم عنكم حتّى تقدموا البلاد ، فاذا دخلتم عليه ، فأعلموه أني قد حلفتُ ألا أنصرِف حتّى أطأ بلادهم ، وأختم ملوكَهم ، وأجبي خراجَهم » .

وانطلق الوفد بقيادة هبيرة بن المشمرج ، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمام ، ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاء تحتها الغلائل ، وتطيبوا بالبخور والعطور ولبسوا النعال الرقيقة ، وارتدوا الأردية ، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته . فجلسوا . فلم يكلمهم الملك ولا أحدٌ من جلسائه ، فنهضوا ، فقال الملك لمن حضر المجلس : « كيف رأيتم هؤلاء ؟ » قالوا : « رأينا قوماً ما هم إلا نساء » . فلما كان الغد أرسَل إليهم فلبسوا الوشي وعمائم الخز والمطارف ، وغدوا عليه . فلما دخلوا عليه ، قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ . قالوا هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى ، وهم أولئك . فلما كان اليوم الثالث أرسل اليهم فشدوا عليهم سلاحهم ، ولبَسوا البيض والمغافِرَ ، وتقلدوا السيوف ، وأخذوا الرماح وتنكبوا القسي ، وركبوا خيولَهم ، وغدوا ، فنظر إليهم صاحب الصين ، فرأى أمثال الجبال ، فلما دنوا ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين وقد أثاروا

الفزع ، مما حمل الصينيين على منعهم والطلب اليهم العودة قبل الدخول الى مجلس الملك . فانصرفوا . وركبوا خيولهم ، واختلجوا رماحهم ، ثم دفعوا خيولهم حتى كأنها تطير بهم ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء قط . فلما أمسى ، أرسل اليهم الملك أن ابعثوا إليّ زعيمكم وأفضلكم ، فبعثوا اليه هبيرة : فقال له حين دخل عليه : « قد رأيتم عظم مُلكي ، وإنه ليس أحدٌ يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي . وأنا سائلك عن أمر فان لم تصدقني قتلتكم » قال : « سلْ » قال ملك الصين : « لِمَ صنعتم من الزي في اليوم الأول والثاني والثالث ؟» قال هبيرة : « أما زيُّنا الأول فلباسنا في أهلنا وريحنا عندهم ، وأما يومنا الثاني فاذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فزينا لعدونا ، فاذا هاجنا هيج أو فزع كنا هكذا ... » قال الملك « ما أحسن ما دبرتم دهركم ! فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فاني عرفتُ حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه ، قال له (هبيرة) : كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك ! وأمـــا تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهَهُ ولا نخافُه » قال : فما الذي يرضي صاحبك ؟ قال : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويختم

ملوككم ، ويعطى الجزية ، قال : فإنا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ، ونبعث بعض أبنائنا فيختمهم . ونبعث إليه بجزية يرضاها . ثم دعا ملك الصين بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم ، فساروا فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختم الغلمة وردهم ، ووطىء التراب [1] . وأوفد قتيبة هبيرة للاتصال بأمير المؤمنين في دمشق فمات بقرية من فارس .

كان قتيبة إذا رجع من غزاته كل سنة ، اشترى اثنى عشر فرساً من جياد الخيل ، واثني عشر هجيناً ، فيتركها لمن يرعاها ويعتني بها حتى موعد الحرب ، فاذا تأهب لذلك ، وأقام

---

(١) وفي ذلك قال سوادة بن عبد الله السَّلولي :

لا عيب في الوفد الذينَ بَعَثْتَهُمْ
للصين إن سَلَكوا طريقَ المنهَجِ

كسروا الجفون على القذى خوفَ الردى
حـــاشا الكريم هبيرة بن مُشَمْرَجِ

لم يرض غير الخَتْمِ في أعناقِهِم
ورهائنٍ دُفِعَتْ بِحَملِ سَمَرَّجِ

أدَّى رسالتك التي استرعَيْتَـــهُ
وأتاك من حِنثِ اليمين بمخرجِ .

معسكره قيدت الخيول وأضمرت . فلا يقطع نهراً بخيل حتى تخف لحومُها ، فيحمل عليها من يحمله في الطلائع . وكان يبعث في الطلائع الفرسان من الأشراف ، ويبعث معهم رجالاً من العجم ، ممن يستنصح على تلك الهجن – كأدلاء – وكان إذا أمر بطليعة ، أمر بلَوْح فنقش ، ثم يشقه شقتين . فيعطي شقة إلى قائد الطليعة ، ويحتفظ بالشق الآخر ، ويأمره أن يدفن الشق في موضع يحدده له ، من مخاضة معروفة ، أو تحت شجرة معلومة ، أو خربة مميزة . ثم يبعث بعده من يسترجعها ليتأكد من صحة تنفيذ الطليعة لواجبها الاستطلاعي .

تمرد قتيبة ومصرعه :

كان الوليد بن عبد الملك قد أراد جعل ابنه عبد العزيز ولي عهده ؛ وأوعز بذلك إلى الشعراء [1] والقادة لمعرفة رأيهم ، فكان أن بايعه الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم على خلع أخيه سليمان ، ثم هلك الوليد ، وقام سليمان بن عبد الملك أميراً للمؤمنين وكان الحجاج قد توفي قبل الوليد ، فنجا من غضبة سليمان وخاف قتيبة شره ، ووضع في تقديره أن يعمل

---

(١) وقال جرير في ذلك . (ديوان جرير ٣٥٧) .

إذا قيل أيّ الناس خير خليفة — أشارت إلى عبد العزيز الأصابعُ

رأوه أحق الناس كلّهم بها — وما ظلموه ، فبايعوه وسارعوا

الخليفة سليمان على تعيين يزيد بن المهلب خراسان فينتقم منه وتعجل قتيبة في الأمر ، فكتب اليه كتاباً يهنئه بالخلافة ، ويعزيه على الوليد ، ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأن له مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان ، ولم ينس تذكيره بغدر يزيد بن المهلب وكفره وقلة شكره . ثم كتب كتاباً ثانياً يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم ، وهيبته في صدورهم ، وعظم صوته فيهم ، ويذم المهلب وآل المهلب . ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه . ثم أنه كتب كتاباً ثالثاً جاء فيه :

« لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمني لأخلعنك خلع النعل . ولأملأنها عليك خيلاً ورجالاً » . وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة (أهله) وقال له : ادفع اليه هذا الكتاب ، فان كان يزيد بن المهلب حاضراً ، فقرأه ثم ألقاه اليه ، فادفع اليه الكتاب الثاني ، فان قرأه وألقاه إلى يزيد فادفع اليه هذا الكتاب (الثالث) أما إذا قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين . ومضى الباهلي — رسول قتيبة — حتى دخل على سليمان ، وعنده يزيد بن المهلب ، فدفع اليه الكتاب ، فقرأه ، ثم ألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتاب الثاني ، فقرأه ثم رمى به إلى يزيد ، فدفع اليه الكتاب الثالث ، فقرأه ، فتمعر (تغير) لونُه ثم وضعه بين مثالّين من المُثُل التي تحته ، ثم أمر برسول قتيبة أن ينزل — فحول إلى دار الضيافة ، حتى إذا

كان المساء ، دعا به سليمان ، فأعطاه صرة فيها دنانير ، وقال له : (هذه جائزتك) وهذا عهد صاحبك على خُراسان ، فسر ، وهذا رسولي معك بعهده .

وخرج الباهلي ومعه رسول سليمان (من عبد القيس يدعى صعصعة أو مصعب) فلما كان بحلوان من العراق ، تلقاهم الناس بخلع قتيبة ، فرجع مصعب ودفع العهد الى رسول قتيبة وقد خُلع ، واضطرب الأمرُ . فدفع إليه عهده ، فاستشار إخوته ، فقالوا : لا يثق بك سليمان بعد هذا ...

كان قتيبة بعد أن وجه رسوله إلى دمشق ، قد عمل على جمع إخوته لاستشارتهم وقد همّ بخلع أمير المؤمنين ، فقال له عبد الرحمن : « اقطع بعثاً فوجّه فيه كل من تخافه ، ووجه قوماً إلى مرو ، وسر حتى تنزل سمرقند ، ثم قل لمن معك ، من أحب المقام فله المواساة ، ومن أراد الانصراف فغير مستكره ولا متبوع بسوء ، فلا يقيم معك إلا مناصح » وقال له عبد الله : « اخلعه مكانك ، وادع الناس إلى خلعه ، فليس يختلف عليك رجلان ، فأخذ برأي عبد الله ، فخلع سليمان ، ودعا الناس إلى خلعه ، وقام فيهم خطيباً في محاولة لتحريضهم[1] .

---

(١) وكان فيما قاله قتيبة : « إني قد جمعتكم من عين التمر ، وفيض البحر ، فضممت الأخ إلى أخيه ، والولد إلى أبيه ، وقسمت بينكم فيئكم ، وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدرة ولا مؤخرة ، =

ولكن الناس التزموا منه موقف الحذر ، ولم يستجب لدعوته أحد ، فغضب قتيبة ، وألقى خطاباً آخر قرعهم به وشتمهم وأهانهم [١] فأثار بذلك حقدهم وضغينتهم ، ثم انه نزل فدخل

= وقد جربتم الولاة قبلي : أتاكم أمية – بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية ، عامل عبد الملك على خراسان حتى سنة ٧٨ هـ – فكتب إلى أمير المؤمنين إن خراج خراسان لا يقوم – لا يكفي – بمطبخي ، ثم جاءكم أبو سعيد – المهلب بن أبي صفرة – فدوم بكم ثلاث سنين لا تدرون أفي طاعة أنتم أم في معصية ! لم يجب فيئاً ، ولم ينكأ عدواً . ثم جاءكم بنوه بعده ، يزيد ، فحل تبارى إليه النساء ، وإنما خليفتكم يزيد بن ثروان هبنقة القيسي – المضروب به المثل في الحمق –) . تاريخ الطبري ٥٠٩/٦ .

(١) وكان مما قاله لهم : « لا أعز الله من نصرتم ، والله لو اجتمعتم على عنز ما كسرتم قرنها ، يا أهل السافلة – ولا أقول أهل العالية – يا أوباش الصدقه ، جمعتكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب . يا معشر بكر بن وائل ، يا أهل النفخ والكذب والبخل ، بأي يوميكم تفخرون ؟ بيوم حربكم أو بيوم سلمكم ! فوالله لأنا أعز منكم . يا أصحاب – مسيلمة ، يا بني ذميم – ولا أقول تميم – يا أهل الخور والقصف والغدر ، كنتم تسمون الغدر في الجـــاهلية كيسان . يا أصحاب سجاح ، يا معشر عبد القيس القساة ، تبدلتم بابر النخل أعنة الخيل . يا معشر الأزد ، تبدلتم بقلوس السفن أعنة الخيل الحصن ؛ إن هذا لبدعة في الإسلام . والأعراب وما الأعراب ! لعنة الله على الأعراب ! يا كناسة المصرين ، جمعتكم من منابت الشيح والقيصوم ومنابت القلقل ، تركبون البقر والحمر في جزيرة=

منزله وأقبل عليه أهل بيته ، وعنفوه على موقفه ووجهوا له اللوم [1]

= ابن كاوانَ ، حتى إذا جمعتكم كما تجمع قزع الخريف ، قلتم كَيتَ وكَيْتَ ! أما والله إني لابن أبيه ! وأخو أخيه ، أما والله لأعصبنكم عَصْبَ السّلمة . إن حول الصليان (نبت من أفضل المرعى) الزمزمة (صوت الفرس) . يا أهل خراسان ، هل تدرون من وليّكم ؟ وليكم يزيدُ بن ثروان . كأني بأمير مزجاء . وحَكَمٌ قد جاءكم فغلبكم على فيئكم واظلالكم . إن ها هنا ناراً ارْموها أرْم معكم ، ارموا غرضكم الأقصى . قد استُخْلف عليكم أبو نافع ذو الوَدَعات . إن الشأم أبٌ مبرْور ، وإن العراق أبٌ مكفور . حتى متى يتبطح أهل الشأم بأفنيتكم وظلال دياركم ! يا أهل خراسان ، انسبوني تجدوني عراقي الأم . عراقي الأب ، عراقي المولد ، عراقي الهوى والرأي والدين ، وقد أصبحتم اليوم فيما تَرَون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد . وأمن سبلكم ، فالظعينة تخرج من مَرْوَ إلى بَلَخ بغير جواز ، فاحمدوا الله على النعمة ، وسلوه الشكر والمزيد » .

(١) كان مما قاله أهل بيت قتيبة وهم يلومونه : « ما رأينا كاليوم قط ، والله ما اقتصرت على أهل العالية وهم شعارك ودثارك ، حتى تناولت بكراً وهم أنصارك ، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت تميماً وهم اخوتك ، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت الأزد وهم يدك ! فقال قتيبة : « لما تكلمت فلم يجبني أحدٌ غضبت ، فلم أدر ما قلت : إن أهل العالية ، كابل الصدقة قد جمعت من كل صوب . وأما بكر فإنها أمة لا تمنع يد لامس (كالمومس او العاهرة) وأما =

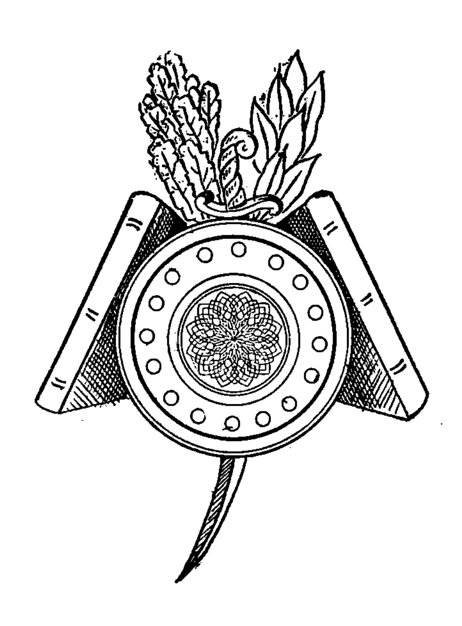
وغضب الناس ، وكرهوا خلع سليمان ، وغضبت القبائل من شتم قتيبة لها ، فأجمعوا على خلافه وخلعه ، واتفقوا على إسناد امارتهم الى وكيع (من بني تميم) . وكان في خراسان يومئذ من المقاتلة من أهل البصرة من أهل العالية ٩ آلاف ، وبكر ٧ آلاف رئيسهم الحضين بن المنذر ، وتميم ١٠ آلاف وعليهم ضرار بن حصين الضبي ، وعبد القيس ٤ آلاف عليهم عبد الله بن علوان عوذي ، والأزد ١٠ آلاف رأسهم عبد الله بن حوزان ، ومن أهل الكوفة ٧ آلاف عليهم جهم ابن زجر — أو عبيد الله بن علي — . والموالي ٧ آلاف عليهم حيان النبطي — من الديلم — . فكان مجموعهم ٥٤ ألفاً . وقفوا جميعاً ضد قتيبة ، فيما لم يبق معه سوى بعض من أهله . وعندما عرف قتيبة تحالف كل القوى ضده أدرك نهايته الحتمية . وفي جو من التآمر المتبادل بين عقبة ووكيع ، استطاع وكيع مجابهة قتيبة وقتله وقتل أخوته الخمسه مع ولده وعدد من أهله ، وأرسل وكيع رأس قتيبة الى أمير المؤمنين سليمان الذي أمر بدفنه وقال : « ما أردت هذا كله » .

عندما بلغ الأصبهبذ (ملك الترك) مصرع قتيبة قال لرجال

= تميم فجمل أجرب ، وأما عبد القيس فما يضرب العير بذنبه ، وأما الأزد فأعلاج ، شرارٌ من خَلْق الله ، لو ملكت أمرهم لوسمتهم» — (البيان والتبيين ١٣٢/٢ — ١٣٥ — الكامل، ابن الأثير — وتاريخ الطبري ، أحداث سنة ٩٦ هـ) .

كانوا عنده « يا معشر العرب ! قتلتّم قتيبة ويزيد وهما سيدا العرب ! » قيل له . فأيهما كان أعظم عندكم وأهيب ؟ قال : **لو كان قتيبة بالمغرب ، بأقصى جحر به في الأرض ، مكبلاً بالحديد ، ويزيد معنا في بلادنا والٍ علينا لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد .**

وجاء رجل إلى قتيبة يوم قتل ، فقال : اليوم قتل ملك العرب . وكان قتيبة عند أهل فارس وخراسان يعرف بملك العرب .



الفصل الثاني

قتيبة بن مسلم وفن الحرب

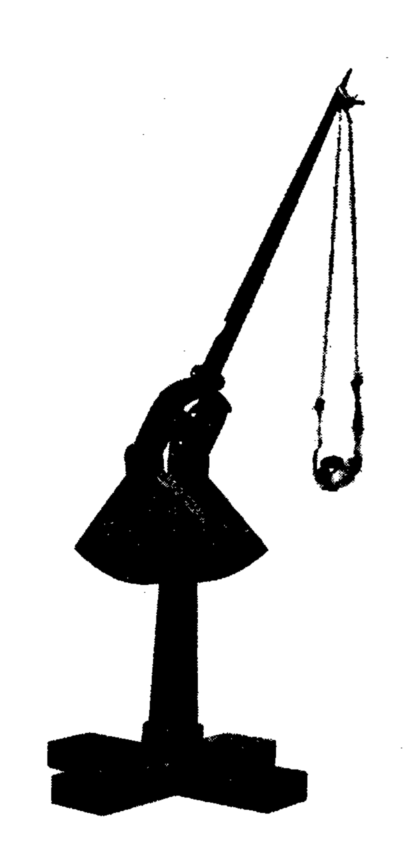
موقع قتيبة من فن الحرب

آ — في الاستراتيجية العليا

١ — الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة
٢ — بناء المجتمع الجديد
٣ — وضوح الهدف
٤ — الحرص على العنصر العربي (دعامة الاسلام)
٥ — استراتيجية الحرب التشتيتية
٦ — استراتيجية الهجمات الوقائية

ب — في مبادىء الحرب

١ — المباغتة
٢ — أمن العمل
٣ — القدرة الحركية
٤ — المبادأة واستخدام القوة الهجومية
٥ — مبدأ الاقتصاد بالقوى
٦ — المحافظة على الهدف



موقع قتيبة من فن الحرب

« اغزوهم قبل أن يغزوكم فما غزي قوم في عقر دارهم الا ذَلّوا »

(علي بن أبي طالب)

جاء قتيبة إلى عالم فن الحرب عند العرب المسلمين في وقت متأخر ، فكان من جيل القادة اللاحقين وليس من جيل القادة السابقين ، وكان بينه وبين رواد الفتح الأوائل (أبو عبيدة وخالد وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص) وأضرابهم فترة تزيد على نصف قرن ، وخلال هذه الفترة ، كانت أسس فن الحرب عند العرب المسلمين قد أصبحت مكينة الأركان ، ثابتة الجذور . وحتى يصبح بالامكان تحديد موقع قتيبة من فن الحرب عند العرب المسلمين ، فانه من الضروري استعراض

المعالم البارزة لمعطيات هذا الفن وتحديد أسس العقيدة القتالية الإسلامية .

لقد كانت عقيدة القتال الاسلامية ، **هجومية قبل كل** شيء ، يلخصها قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا » ، وكان الهدف الأول من الحرب هو نشر الاسلام . ومن الصعب تصور إمكان تحقيق النجاح في نشر الرسالة دون حملها إلى أرجاء الدنيا وتعريف العالم بها ، كما أنه من الصعب أيضاً تصور قبول الرسالة دون مقاومة على الاطلاق . فكانت الحرب والحالة هذه البديل الطبيعي لقبول انتشار الاسلام سلماً، ولكن نظراً لأن حرب المسلمين كانت **ذات أهداف انسانية ، فقد كانت من الحروب العادلة، ومن عدالة قضية الحرب، كان سلوك قادة العرب المسلمين عادلاً** . إلا أنه سيظهر واضحاً من خلال مطالعة سيرة قتيبة أن سلوكه قد تميز بالقسوة والعنف ، ويكمن هذا العنف والقسوة في الواقع ، بردود الفعل الشرسة التي كان يجابَه بها المسلمون في أقصى الشرق . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان هذه القسوة كانت محددة بشرط (النكث ونقض العهود) وهذا أمر مشروع . يتوافق مع منطق الحرب ومع طبيعة الحرب ذاتها . ولقد لجأ الرسول الأعظم ، ولجأ القادة من العرب المسلمين ــ وبصورة خاصة خالد بن الوليد وعقبة بن نافع لمثل هذا الأسلوب في عدد من الظروف الصعبة التي كانت تفرض استخدام العنف والقسوة . ونتيجة لذلك كله ، فقد

تميزت حروب العرب المسلمين بأنها **(حرب حركة)** لا تعرف حرب الخنادق ، ولا حرب الثبات ، ولا حرب التحصينات إلا في حدود متطلبات الأمن ، ولئن لجأ العرب المسلمون في عهود متأخرة إلى التخلي عن حرب الحركة ، فان ذلك لم يكن سوى نتيجة لمجموعة من الظروف بعضها يتعلق بالسياسة – الاستراتيجية (كتمزق وحدة العالم الاسلامي السياسية) وبعضها نتيجة لضعف العنصر العربي أمام حجم الفتوحات واستنزاف قوته بالصراعات الداخلية والحروب الخارجية .

ونظراً لأن حروب المسلمين كانت **(حروب حركة)** فانها حملت جميع خصائص حرب الحركة سواء في مجال التنظيم للقتال ، أو في ادارة الحرب ، أو حتى في تنظيم مجتمع ما بعد الحرب . ولم تكن المهارة في المحافظة على المبادأة ، أو تحقيق المباغتة ، أو المحافظة على الأمن ، سوى بعض متطلبات حرب الحركة .

ان حرب الحركة تتطلب حشد القوى والوسائط وتوجيهها باتجاه الضربة الرئيسية ، ويتطلب ذلك بالضرورة توافر كفاءة قيادية عالية ، كما يتطلب مهارة كبرى في التنفيذ ، ومرونة رائعة في تحرك القوات ونقلها . وتكون المعادلة ثلاثية الأطراف (قيادة + قوات + وسائط) . وقد استطاع العرب المسلمون توفير هذه الشروط كلها ، فكان نجاحهم رائعاً في تنفيذ حرب الحركة ، وفي حشد القوى والوسائط الضرورية باتجاه (الجهد

الرئيسي) . وتعتبر عمليات قتيبة في هذا المجال نموذجاً رائعاً لتطوير (حرب الحركة) وضمان شروط نجاحها .

هنا تبرز نقطة حاسمة في قضية اتصال المعرفة العسكرية عند قادة العرب المسلمين ، وتطويرها ، بحيث أنها تحافظ على خصائصها الأساسية وميزاتها رغم تباعد العهد بين الرعيل الأول من جيل قادة الفتح الاسلامي وبين أجيال القادة التابعين ، ومن المعروف أنه لم تكن في تلك الفترة كليات عسكرية أو معاهد اختصاصية تعمل على تحليل المعارك واستخلاص نتائجها وتعميمها في اطار مبادىء ثابتة تدعم العقيدة القتالية للعرب المسلمين وتعمل على تطويرها .

لقد حددت العقيدة الاسلامية الأسس والمبادىء الخاصة بالعقيدة القتالية ، ثم أخذ القادة في ممارسة أدوارهم القيادية وفقاً للمواقف التي يجابهونها ، وبحسب مبادأتهم الشخصية ، فتكونت من ذلك حصالة واسعة من الخبرات والتجارب ، وكانت هذه الخبرات والتجارب (وقفاً ، أو مشاعاً) ينهل منه كل قائد بحسب طموحاته وقابلياته . وهنا يبرز الدور الفردي للقائد في اتجاهين ، الأول ـ الالتزام بالمعطيات الثابتة التي برهنت التجارب المتتابعة على صحتها ، والثاني ، تطوير هذه المعطيات الثابتة بما لا يتناقض وأسس العقيدة القتالية للعرب المسلمين ، وبما يمنح هذه المعطيات قدراً من المرونة يكفل لها مجابهة المواقف المختلفة والانتصار عليها .

يصبح بالامكان بعد ذلك تحديد موقع قتيبة بن مسلم الباهلي من فن الحرب عند العرب المسلمين ، فعلى الرغم من انتماء قتيبة لجيل القـــادة اللاحقين ، **إلا أنه أعطى العقيدة القتالية الاسلامية أبعاداً جديدة** ، لا تتمثل في اكتساب المساحات الجغرافية بقدر ما تتمثل بالتراث الفكري الذي أضافه قتيبة الى فن الحرب الاسلامي .

وليست القضية مجرد مبادىء ثابتة وقوالب جامـــدة ، يمكن لها إذا ما طبقت احراز النصر . ولو كان الأمر كذلك لأصبح باستطاعة جميع القادة على اختلاف مراتبهم الاضطلاع بالأدوار القيادية ، ولظهر جيل كامل كلهم قتيبة بن مسلم ، وان عدم ظهور أكثر من قتيبة ، وأكثر من موسى بن نصير وأكثر من محمد بن القاسم الثقفي انما هو برهان على أن القضية أكثر من مجرد معرفة مبادىء ، انها قضية كفاءة قيادية ومهارة في انتقاء ما هو صالح من المبادىء لمجابهة المواقف المختلفة والتي تظهر بصورة طارئة ومباغتة .

ومن هنا تتأكد المعادلة الأساسية لنجاح فن الحرب عند العرب المسلمين وهي معادلة صنعتها طبقة قيادية على درجة عالية من الكفاءة ، وأسس صحيحة صاغتها عقيدة العرب المسلمين القتالية ، وجنود مقاتلون لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً في تصميمهم وعنادهم وصلابتهم واحتمالهم لكره القتال .

آ ـ في الاستراتيجية العليا

١ ـ الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة :

اتخذ قتيبة من مرو قاعدة لعملياته ومركزاً متقدماً لادارته . فكان ينطلق في كل عام منها لمتابعة فتوحاته ، حتى إذا حقق أهدافه عاد إلى مرو . وكان اذا ما غادر القاعدة ، عين من يقوم على الحرب أثناء غيابه ويترك حامية قوية للدفاع عنها ، وبذلك كان باستطاعته تنفيذ عملياته دون أن تتعرض مؤخرته للخطر ، ودون أن يفقد الاتصال مع قواعده التموينية ، ولقد كان باستطاعة قتيبة البقاء في القواعد المتقدمة التي افتتحها ، واختصار الجهد عند متابعة العمليات في السنة التالية ، ولكن اصراره على اتخاذ مرو قاعدة له ، ضمن له توافر شروط أخرى ، فقد كانت مرو تقع في وسط اقليم أمكن له ضمان الاستقرار فيه ، وعلاوة على ذلك ، فقد كان موقع مرو ، يضمن له حرية التحرك والعمل على محاور متباعدة وجبهات مختلفة سواء رغب

في العمل على اتجاه الشمال أو الشرق . وهكذا فان الموقع المتوسط لمرو - اضافة الى قوة هذه القاعدة وضمان الأمن فيها هو الذي حمل قتيبة على ابقائها قاعدة للعمليات . وبذلك يكون قتيبة قد طور مفهوم (الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة) وأضاف اليه ضرورة وجود هذه القاعدة في موقع متوسط يسمح للقائد بمزيد من حرية العمل ، ومزيد من حرية الحركة .

إذا أمكن الانتقال بعد ذلك الى تطبيق هذا المبدأ على المستوى العملياتي فسيظهر ذلك من خلال تعليمات قتيبة لقادته بعد فتح المواقع المهمة ، وإقامة الحاميات القوية فيها . ثم تجهيز هذه الحاميات بأدوات الحرب وتجهيزات الحصار الضرورية . وبذلك يكون قتيبة أيضاً قد طور مفهوم (أمن قاعدة العمليات) باقامة مجموعة من القواعد العملياتية المتقدمة التي تضمن مجابهة كل عملية مباغتة وإحباطها ريثما تتوافر الفرصة المناسبة لتدخل القوة الرئيسية ، ويصبح أمن القاعدة الرئيسية غير مرتبط بشروط الحيطة للقاعدة ذاتها ، وإنما بمجموعة القلاع والحصون المتقدمة التي تحمي قاعدة العمليات الرئيسية (وهي مروُ هنا) .

هناك ثمة تطوير آخر أضافه قتيبة إلى شروط (القاعدة القوية والمأمونة) وهو أن تكون القاعدة في وسط مركز يضمن للقوات التأمين الاداري . فلقد كانت جيوش المسلمين في بداية الفتوح صغيرة الحجم نسبياً . بحيث أنها لم تتجاوز في المعارك الحاسمة الأولى (القادسية ، اليرموك ، نهاوند ، الفيوم) قوة

ثلاثين ألفاً على أكثر تقدير ، كما أن الإمداد الإداري لتلك القوات كان بسيطاً ، وكذلك تسلحها ، أما في عهد قتيبة فقد أصبحت الجيوش تتجاوز الخمسين ألفاً أو ستين ألفاً ، وهي مسلحة بالوسائط الثقيلة (المنجنيق) وأدوات الحصار ، وبذلك كان باستطاعة الجيوش الأولى الاعتماد على قاعدتها الخلفية في الجزيرة العربية ، في حين لم يعد باستطاعة قتيبة الاعتماد إلا على الموارد المتوافرة في الاقليم ، مع تأمين التعايش من منطقة العمليات ومن قاعدة العمليات ذاتها . **(ولهذا كان قتيبة يعمل إذا رجع من حربه على توزيع قواته ، بحيث لا يبقى لديه إلا القليل منها ، ثم إنه يواعدها على الاجتماع في موعد الغزو من السنة التالية)** وعلى الرغم من ارتباط هذا المبدأ (بالتأمين الاداري للقوات) إلا أنه أصبح منذ عهد قتيبة شرطاً أساسياً من شروط اقامة القواعد القوية والمأمونة .

٢ ـ بناء المجتمع الجديد :

عندما تولى قتيبة ولاية الري ، ثم انتقل منها إلى خراسان ، كان قد مضى على وجود المسلمين فيها ما يزيد على نصف قرن ، وكانت أقاليم فارس وخراسان قد عقدت اتفاقيات للصلح مع المسلمين ثم نقضتها ، ثم عادت للتأرجح بين الإبرام والنقض ، ولم تعد القضية قضية تعريف الناس هناك برسالة السماء ، بقدر ما أصبحت قضية ضمان الشروط المناسبة لاستقرار

الاسلام ، وردع المرتدين ، والقضاء على أوكار التآمر المضادة للمسلمين وتصفيتها . وعلى هذا فقد عمل قتيبة على تطوير الوسائط ، وتنويع الأساليب بما يتوافق وهذا الهدف . وكان من ذلك :

آ ـ **الدفاع عن المسلمين وحمايتهم** : فعندما علم قتيبة بوجود أسرى للمسلمين في قبضة نيزك ملك طرخان ، طلب اليه اطلاق سراحهم ، (وتهدده في كتابه ، فخاف نيزك وبعث بهم الى قتيبة) . وعندما فتح سمرقند ، استخلف عليها عبد الله بن مسلم وخلف عنده جنداً كثيفاً ، وآلة من آلات الحرب كثيرة وقال : « لا تدعن مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد ، وإن جفت الطينة قبل أن يخرج فاقتله ، وإن وجدت معه حديدة أو سكيناً فما سواه فاقتله ، وإن أغلقت الباب ليلاً ، فوجدت فيها أحداً منهم فاقتله » .

ب ـ **حماية حلفاء المسلمين** : كان من أحد أسباب غزو سمرقند غدر أهلها بملكهم لتحالفه مع المسلمين ، وعلى هذا فعندما أقبل قتيبة بجيشه فحاصر المدينة ، طلب أهل السغد الصلح ، فكان رد قتيبة « أنا ثائر بدم طرخون ، كان مولاي ، وكان بذمتي » « أنا لا أصالحهم إلا ورجالنا على الثلمة ، ومجانيقنا تخطر على رؤوسهم ومدينتهم. » .

وعندما طلب ملك خوارزم شاه دعم قتيبة له ، من أجل التغلب على خصومه ، أسرع قتيبة بجيشه ، وانتصر للملك ،

وأعانه ، ودخل مدينة فيل (احدى المدائن الرئيسية الثلاثة في مملكة خوارزم) وصالح ملكها . وتلك هي بعض النماذج لا كلها . وهي علاوة على توافقها مع التعاليم الاسلامية ، إلا أن تصميم قتيبة على الالتزام بها ، هو الذي ساعده على تحقيق هدفه .

ج ــ **القسوة في معاملة المرتدين وعدم الرأفة بهم** : فعندما غدر نيزك بعهده مع قتيبة ، وأثار القوى ضده ، أقسم قتيبة على قتله ، وما زال به حتّى اعتقله ونفذ فيه حكمه ، وعندما غدر أهل الطالقان بعامل قتيبة (حبيب بن حصين الباهلي) وقتلوه، عمل قتيبة على قتل الرهائن الذين كان يحتجزهم من أهل الطالقان ، ثم لم يلبث حتّى فتح الطالقان ونكّل بأهلها (حتّى شبه المسلمون فعل قتيبة بهم كفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في يهود بني قريظة وبني النضير عندما غدروا بالرسول) .

د ــ **الوفاء بالعهد** : عندما فتح قتيبة سمرقند ، وجمع كنوزها وأصنامها وأحرقها ، تكوّن لديه ما يزيد على الجزية المفروضة ، ولهذا جمع أهل سمرقند وأعلمهم قراره بترك حامية للمسلمين فيها ، وطلب اليهم حمل ما يزيد على الجزية (من أراد منكم أن يأخذ متاعه ... فلست آخذ منكم أكثر مما صالحتكم عليه)

وليست تلك كل الأساليب التي اتبعها قتيبة لبناء المجتمع

الجديد في ولايته وانما هي أبرزها ، ولعل أبرز ما في هذه الأساليب توافقها مع خلق الانسان العربي وصدق إيمان الانسان المسلم .

٣ – وضوح الهدف :

ما أن وصل قتيبة الى خراسان ، والتقى بالمقاتلين من المسلمين حتى حدثهم بقوله :

« أما بعد ... ان الله أحلكم هذا المحل ليعزَّ دينَه، ويذُبَّ بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وقماً (ذلاً) ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر ، بحديث صادق ، وكتاب ناطق فقال : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [1] » . وعندما حاصر قتيبة سمرقند ، واشتد عليه أمرها ، أخذ يردد كالمناجي لنفسه « حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ، أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية » . وعندما فتح سمرقند ، كان أول ما فعله هو أنه (جمع ما تحتويه بيوت النيران وحلية الأصنام ، فكانت كالقصر العظيم حين جمعت ، فأمر بتحريقها ، فقال الأعاجم : إن فيها أصناماً من أحرقها هلك ، فقال قتيبة أنا أحرقها بيدي) ودعا قتيبة بالنار وأخذ شعلة بيده ، وخرج فكبر ثم أشعلها ، وأشعل الناس . وتلى قتيبة (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى)

---

(١) سورة الصف، الآية ٩ .

واشترط في الصلح (أن يبنى له فيها مسجد فيدخل ويصلي) وعندما خرج هبيرة بن مُشَمْرِج للقاء ملك الصين وهدد قتيبة كان رد هبيرة : « **كيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك** » وعندما تولى الوليد بن عبد الملك امارة المؤمنين وجه رسالته المعروفة إلى قتيبة : (ان أمير المؤمنين قد عرف بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين) .

وتلك هي بعض الشواهد التي تبرهن على أن قتيبة قد وضع هدفه الدائم للحرب وهو (نشر الاسلام وقتال أعداء المسلمين). وفي هذا المجال يشترك قتيبة مع المسلمين جميعاً في وضوح الهدف . (فقد خلفوا الدنيا وهم قادرين عليها ، وأسرعوا الى حسن ثواب الآخرة) ولكن قتيبة أفاد من وضوح الهدف هذا في تحديد الهدف لينقله على المستوى العملياتي إلى أهداف متتابعة يتم تنفيذها على مراحل متلاحقة (ففي كل سنة يتم تحديد هدف للحرب بحسب المواقف) وكانت هذه الأهداف جميعاً تخدم الهدف العام وتلتقي عنده . وقد كانت الأهداف السنوية محددة بدقة كبيرة وواضحة تماماً بفضل وضوح هدف الحرب .

لقد كان الوضوح في الهدف العام ، ومن ثم الأهداف العملياتية ، احدى الخصائص المميزة لعقيدة القتال الاسلامية ، وعلى الرغم من ذلك ، فان رؤية القادة لم تكن واحدة أو متساوية ، فقد تولى خراسان المهلب بن أبي صفرة وعبد الرحمن ابن الأشعث قبل أن يتولاها قتيبة ، ولم يتمكنا من ترجمة

الوضوح في الهدف العام إلى أهداف عملياتية واضحة على نحو ما فعله قتيبة . وهنا يبرز الدور الفردي في إدراك أبعاد الموقف ومعرفته ، والعمل بأساليب صحيحة تستجيب لها هذه المعرفة وتخدمها .

وكان وضوح الهدف العملياتي عند قتيبة هو الذي ساعده على التوفيق بين حجم الهدف وبين القوى والوسائط الضرورية لانجاز هذا الهدف فكان نجاحه الدائم في جميع الأعمال القتالية التي قادها على امتداد عقد من الزمن ، لم تنتكس له خلال ذلك راية ، ولا هزم له جيش ، ولا نكب المسلمون معه بنكبة وهو يقف عند تنفيذ هذا المبدأ موازياً تماماً لقائد مسلم آخر كان يعمل في أقصى الغرب ، هو موسى بن نصير ، وليس من الغريب بعد ذلك أن يحققا نجاحاً متساوياً. فقد دوَّخ قتيبة المشرق. ودوخ موسى المغرب . وأضاف الاثنان لتاريخ المسلمين أمجاداً خالدة .

٤ ــ الحرص على العنصر العربي ــ دعامة الاسلام .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عزيزٌ عَلَيْهِ مَاعنتم حريصٌ عَلَيكُم بالمُؤْمنين رؤوفٌ رَحِيمْ). [١]

كان ذلك هو مبدأ القادة السياسيين والعسكريين منذ جاء

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٢٨ .

الاسلام – الحرص على المسلمين – ولقد حمل العرب أعباء الرسالة إلى الدنيا ، وكانوا قلّة ، فكان حرص أمراء المؤمنين وقادة الجيوش كبيراً للمحافظة على العنصر العربي – دعامة الاسلام – ولقد ظهر حرص قتيبة على العنصر العربي من خلال الممارسة العملية لادارة الحرب **فكان يفرض على المسلمين من غير العرب المشاركة في حمل أعباء الجهاد** ، والاسهام بهذا الغرض الذي يقع على عاتق كل مسلم . فكان في ذلك تخفيف عن العرب ، ودعم لهم . ولقد كان أول ما فعله قتيبة عندما تولى خراسان ، أن صالح نيزك وحمله على الاشتراك معه في القتال (وأبلى نيزك بلاء حسناً وهو مع قتيبة) . وعندما أراد قتيبة غزو السغد (استعان بأهل خوارزم وبخارى) ، ثم انه فرض على أهل (بخارى وكس ونسف وخوارزم) تقديم ٢٠ ألف مقاتل للاشتراك معه في غزو الشاش وفرغانه ، ولكن حرص قتيبة على (الانسان العربي) بقي محدداً بتنفيذ الواجب ، فعندما أراد فتح بخارى ، ترك أمر (مجابهة الصدمة الأولى) لقبيلة الأزد العربية ، وعندما انتصر الترك عليها ، توجه قتيبة إلى قبيلة تميم التي اشتهرت ببأسها وصلابتها واستثارها بقوله « يوم كأيامكم » .

وعندما وجه اليه ملوك الشاش واخشاذ وفرغانه ، قوة قتالية تم انتخاب أفرادها من بين أفضل المقاتلين (من أبناء الملوك) عمل قتيبة على انتقاء المقاتلين من بين أشجع الفرسان العرب . وخاطبهم بقوله : (أنتم دهاقين العرب وفرسانهم) .

وعندما أرسل غوزك ملك الترك إلى قتيبة يستثيره بقوله « إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العَجم، فأخرِج إليَّ العرب » كانت استجابة قتيبة الفورية أن اختار شجعان العرب وفرسانهم وكلفهم بمجابهة تحديات الترك والتصدي لهم . وإذا أمكن بعد ذلك ، تجاوز الممارسة العملية في إشراك العرب وغير العرب بشرف الجهاد ، فانه يصعب استخلاص ولو برهان واحد على تمييز العرب على غيرهم أو الحرص عليهم بأكثر مما كان يحرص على المسلمين جميعاً دون استثناء ، ولقد كان قتيبة – في جميع خطبه وأحاديثه ، منسجماً مع هذه الحقيقة – حقيقة المساواة بين المسلمين من عرب وغيرهم – في حمل واجب الرسالة والجهاد دونها حتى يظهرها الله على الدين كله وإذا مـا شرف الله تعالى أمة العرب بشرف الجهاد في سبيله ، فليس باستطاعة قتيبة ، ولا غير قتيبة من أمراء المسلمين وقادتهم ، مخالفة هذا المبدأ أو التنكر له ، ويبقى الحرص على العنصر العربي مقيداً بحدود تنفيذ الواجب ، ومع ضمان الشروط التي تضمن توافر فرص النجاح لهذا الواجب . فاذا أمكن ضمان تنفيذ هذه الشروط مع تحقيق الحد الضروري – للحفاظ على العنصر العربي – ضمن مبدأ – الحرص على العنصر العربي – تم تنفيذ ذلك ، أما اذا تطلب الموقف تقديم تضحية تتناسب مع أهمية الهدف تصبح التضحية مشروعة ومقبولة ، ولقد التزم قادة المسلمين جميعاً بهذا المبدأ . فكان حرصهم على العنصر العربي وسيلة لتمكين العرب من متابعة رسالتهم ، لا هدفاً في

حدّ ذاته . وهناك فارق كبير في أن يكون الحرص على العنصر العربي (مجرد وسيلة) وبين كونه (هدفاً) قائماً في ذاته .

٥ ــ استراتيجية الحرب التشتيتية :

كانت استراتيجية الحرب التشتيتية من الاستراتيجيات المميزة لعقيدة الاسلام القتالية ، وقد طبقت استراتيجية الحرب التشتيتية بطرائق مختلفة ، بداية من العمل على محاور مختلفة (محوري الشام والعراق في البداية ــ والعمل على أربعة محاور في مسرح عمليات الشام ذاتها وعلى محورين في مسرح عمليات العراق) مروراً بعد ذلك إلى حشد القوى على محور جهد رئيسي واحد ، والمناورة على بقية المحاور ، كل ذلك بالاضافة الى ارسال مجموعات قتالية لتنفيذ عمليات مستقلة ، مما كان يترك قوات الخصم (وقياداتها) في حالة من الضياع التام ، وفقد المبادأة ، مما كان يحرمها من تقديم ردود فعل منظمة في مجابهة قوات العرب المسلمين. ولقد جاء قتيبة الى عالم الفتوح ، وقد أصبح هذا المبدأ من المبادىء الثابتة واستراتيجية من الاستراتيجيات الراسخة في عقيدة الاسلام القتالية ، ولهذا فقد عمل قتيبة على استخدام هذا المبدأ وتطبيقه بشكل متطور يتناسب والمواقف المستجدة .

لقد ظهرت الحروب التشتيتية في مخططات قتيبة عندما فتح خام جرد ، ثم انتقل منها مباشرة إلى سمرقند . فسمي فتح قتيبة هذا (عادي عيَـْرين)، وتسمى الاعراب الفارس

(عادي عيرين)اذا صرع في طلق واحد عيرين(حمارين وحشيين) اثنين. كماظهرت هذه الحروب التشتيتية أيضاً عندما عمل قتيبة على توجيه أخوته إلى أقاليم مختلفة في حين توجه هو إلى أقاليم أخرى. وعلى الرغم من هيمنة طابع المباغتة على هذه العمليات إلا أن أسلوب الحرب التشتيتية هو الأسلوب المميز لها. ويُظهر ذلك أن الأعمال القتالية في تصميم قتيبة قد أصبحت على درجة عالية من التعقيد بحيث تتحكم في تخطيطها وتنفيذها مجموعة من مبادىء الحرب ، ويظهر ذلك بصورة واضحة في التنظيم للقتال وفي ادارة المعركة ، فقد أخذ قتيبة في تكوين القوات تكويناً جديداً ، إذ كانت الطلائع أو المقدمة التي يدفع بها قتيبة تضم ١٨ حتى ٢٠ ألفاً من المقاتلين ، ومعنى ذلك أن هذه المقدمة كانت تعادل ثلث قوة حجم الجيش . ونظراً لحجم هذه القوة الكبير فقد كان باستطاعة قتيبة أن يدفعها أمامه لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، **وتأخذ الحرب التشتيتية هنا طابع الهجوم على موجات متتالية وبأنساق متعاقبة . وقد كان هذا الأسلوب المميز لعمليات قتيبة هو التطوير الكبير الذي حملته تجارب الحرب الطويلة للعرب المسلمين** في صراعهم منذ غادروا جزيرتهم حاملين لواء الجهاد .

ان هذا الشكل من التطور يختلف تماماً عن أساليب الدعم الذي اتبع في عمليات الفتوح الحاسمة ، اذ كان يتم زج القوة الرئيسية هناك في المعركة ، ويتم بعد ذلك إرسال موجات من الدعم ــ عادة ما تكون بقوات صغيرة من الفرسان ــ كما أن هذا الشكل يختلف أيضاً عن عمليات زج الأنساق المتتالية في

المعركة الحديثة بما يضمن القدرة على الاستمرار في القتال ، ولهذا يمكن اعتباره شكلاً مبتكراً ومتطوراً اختص به قادة العرب المسلمين ، ونجد له صورة مشابهة في معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ = ١٠٨٦ م) حيث قاد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين قواته من المغرب الى الأندلس لنصرة المعتمد بن عباد . وقد خاض المعتمد معركته بقواته ، وعندما وصلت المعركة الى النقطة الحاسمة تدخل يوسف بن تاشفين فحسم الصراع لمصلحة المسلمين . وهكذا فان تقسيم الجيش الى مجموعتين قتاليتين قويتين قد ظهر بوضوح وللمرة الأولى من خلال تنظيم قتيبة بن مسلم للعمليات القتالية ، ثم ظهرت أهميته خلال مسيرة الحروب بعد ذلك .

٦ ــ استراتيجية الهجمات الوقائية :

تبرز استراتيجية الهجمات الوقائية في أعمال قتيبة القتالية وهي أكثر وضوحاً من كل ما عداها من الاستراتيجيات . فما أن وصل قتيبة إلى خراسان ، حتى بدأ في تنظيم قواته ، وانطلق من مرو إلى بلخ (المتمردة) فأخضعها ، وأخذ في الانتقال عبر الأقاليم في إطار من التظاهر بالقوة ، وضمن محاولة استطلاعية لدراسة الموقف (على الطبيعة) ثم هو ينطلق الى بيكند في السنة التالية فخاض معارك ضارية (لمدة شهرين) حتى تم له فتح المدينة . وفي السنة التالية تحرك في وقت مبكر مما ساعده على فتح عدد من الأقاليم صلحاً (نومُشكث ورامثينه) . وعندما علم

بتجمع القوى المعادية بقيادة بخارى عام (٩٠هـ = ٧٠٩م) **تحرك بقواته ليسبق قوات التجمع إلى بخارى** وقد ساعده ذلك على خوض معركة تشتيتية من جهة، كما ساعده على تنظيم الهجمات الوقائية قبل أن تتجمع القوات المعادية فتشكل خطراً قد يصعب عليه مجابهته من جهة أخرى. وعندما غدر نيزك بعد ذلك، لم ينتظر طويلاً حتى يتمكن نيزك من تجميع القوى المضادة بل أسرع اليه وما زال به حتى حاصره واستنزله وقتله. وبذلك نجحت استراتيجية الهجمات الوقائية في تحقيق أهدافها الأساسية وهي حرمان العدو من حرية العمل، ونقل المعركة الى أرضه، والقضاء على قوات الخصم قبل إكمال تجمعها وإنهاء استعدادها.

وعندما تمردت تخارستان بعد انتهاء عمليات قتيبة في عام ٩٠ هـ، ولم يبق مع قتيبة سوى أهل مرو، عمل على ارسال أخيه عبد الرحمن في جيش من ١٢ ألف مقاتل، وكلفه بالتوجه الى البروقان وقال له: «أقم بها، ولا تحدث شيئاً، فاذا حسر الشتاء فعسكر، وسر نحو تخارستان، واعلم أني قريب منك» وهكذا يكون قتيبة قد وضع قوة دفاعية لاحباط كل محاولة قد يقوم بها أهل تخارستان لتوجيه هجوم وقائي مسبق، وكلف هذه القوة بالتحرك مع نهاية الشتاء للقيام بالهجوم الوقائي، مع اتخاذ ترتيباته للوصول الى هذه القوة في الوقت المناسب.

وما تجدر ملاحظته هنا هو أن الأقاليم المفتوحة للمسلمين كانت تُترك لتقوم بادارتها الذاتية، وكان كل ما يطلب اليها العملُ على الالتزام بشروط صلح المسلمين، وتأمينُ انتشار

الدين الاسلامي أو دفع الجزية . وكثيراً ما كانت هذه الأقاليم مجردة من كل قوة للعرب المسلمين ــ سوى بعض العمال أو الرسل ــ وكان باستطاعة الأقاليم نتيجة لذلك إعلان تمردها في كل وقت ــ وهذا ما كان يحدث في كثير من الأحيان بتأثير التحريض الخارجي بصورة خاصة . وعلاوة على ذلك ، فقد كان من المحال على قتيبة ، وعلى كل قائد سواه ، أن يعمل على توزيع القوات واقامة الحاميات في جميع الأقاليم التي كان يتم افتتاحها ، نظراً لاتساع الأقاليم ولقلة حجم قوات العرب المسلمين . وعلى هذا فانه لم يبق أمام قتيبة سوى اعتماد استراتيجية الهجمات الوقائية وتطويرها لتحقيق هدف مزدوج الأول الاحتفاظ بالأقاليم التي سبق فتحها ، والثاني هو فتح أقاليم جديدة . وقد تمثل تطوير قتيبة لاستراتيجية الهجمات الوقائية في مجموعة من النقاط أبرزها :

١ ــ سبق العدو باستمرار الى مواقعه ، وإلى أماكنه الحصينة، دون اتاحة الفرصة له حتى يكمل تنظيمه واستعداده.

٢ ــ عزل الأقاليم المتمردة واخضاعها للحروب التشتيتية بهدف حرمانها من كل دعم خارجي .

٣ ــ اختيار التوقيت المناسب لتنفيذ الهجوم الوقائي.

٤ ــ حرمان العدو من فرصة شن هجوم وقائي مسبق وذلك بارسال قوات كافية للتمركز دفاعياً على حدود الاقليم المتمرد ريثما يتم توجيه القوة الرئيسية . وبذلك يكون قتيبة قد حدد للهجمات الوقائية جميع الشروط الواجب توافرها لضمان نجاح الأعمال القتالية .

ب ـ في مبادىء الحرب

١ ـ المباغتة :

لم يكن باستطاعة قتيبة تحقيق أهدافه الاستراتيجية لولا اعتماده على مجموعة من المبادىء التي تضمن له حداً مناسباً من فرص النجاح . وقد كان مبدأ المباغتة في طليعة مبادىء الحرب أهمية عند قتيبة ، ولهذا فقد عمل على تطويره ، وكان العرب المسلمون قد عرفوا أهمية مبدأ المباغتة منذ بداية صراعهم مع المشركين ، ولكن المباغتة كانت تكتسب عندهم طابع (المباغتة الزمانية) أو (المباغتة المكانية) وفي جميع الأحوال — وباستثناء بعض العمليات الخاصة ـ فان المباغتة طبقت في المجالين التكتيكي أو العملياتي في أفضل الظروف . وعندما أخذ قتيبة في ممارسة قيادته، **ظهرت المباغتة عنده بشكل مركب ومعقد، فهي مباغتة زمانية** قبل كل شيء ، إذ كان يعتمد في عملياته إما على بدء العمليات في وقت مبكر من نهاية فصل الشتاء ، أو بالانتقال

من إقليم لاقليم بسرعة، مما يحمل على ظهور قواته بشكل مباغت وغير متوقع ، وكانت (**المباغتة المكانية**) ترافق غالباً (**المباغتة الزمانية**) ، كما عمل قتيبة على تنظيم قواته تنظيماً مبتكراً بزيادة حجم المقدمة (الطليعة) مما كان يحمل الخصم على اعتبارها القوة الرئيسية فيزج ضدها قواته الرئيسية في الوقت الذي يكون فيه قتيبة بعيداً عن مسرح العمليات ، مما يسمح له بزج كتلة قواته في الوقت المناسب ويضمن له (الحرية الكاملة في العمل) ويحقق أيضاً مباغتة جديدة عن طريق (زج قوى ووسائط جديدة في المعركة) .

ويأتي بعد ذلك نقله للقوات من محور إلى محور جديد ، والتحرك من إقليم الى إقليم ليحقق مباغتة استراتيجية كاملة كانت تضمن له النصر في كثير من الأحيان على الرغم من تفوق خصومه وقوة تحصيناتهم ووعورة المسالك للوصول اليهم .

لقد ظهرت هذه المباغتة المركبة في كثير من العمليات التي قادها قتيبة ، ولكنها كانت أكثر وضوحاً في عملية سمرقند ، فقد وجه قتيبة قوة المقدمة بقيادة أخيه عبد الرحمن بعد أن انصرف من خوارزم وقطع مرحلة من المسير في اتجاه مرو ثم دفع بالأثقال وأخذ اتجاهه الجديد نحو سمرقند ووقف فخطب في جنوده فقال لهم : « ان الله قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزو فيه ممكن ، وهذه السغد شاغرة برجالها ، قد نقضوا

العهد الذي بيننا ... الخ » وهذا يبرهن على أن قتيبة قد أدرك أن تحركه الجديد سيكون مباغتاً ـ وسيكون الفتح ممكناً بالتالي وقد تحقق تقدير قتيبة للموقف ، وأمكن له ـ رغم قوة المواقع ، ورغم النجدات وقوات الدعم التي أسرعت لنجدة السغد ـ فتح سمرقند والاستيلاء عليها . وكان من المحال الوصول الى هذا الهدف الاستراتيجي لولا تأثير عامل المباغتة المركبة . حتى أن بعض العرب اعتبروا هذ النوع من المباغتة بمثابة غدر لم يألفوه في حروبهم أو يعرفوه . ولكن حتى لو كان ذلك غدراً ـ في قوانين حرب العرب المسلمين ـ فقد كانت الحجة أنه غدرٌ بغدرٍ . ثم ان قادة العرب المسلمين **قد لجؤوا من قبل إلى مثل هذه المباغتة الاستراتيجية عندما تحرك خالد من العراق الى الشام قبل معركة اليرموك**[1] ، ولكن تلك المباغتة أخذت أهميتها من طـابع التحرك الطويل والصعب أكثر مما أخذته من طابع المباغتة ذاتها ، في حين اكتسب تحرك قتيبة طابع (المباغتة الاستراتيجية) لارتباطه بالهدف الكبير من جهة وهو فتح سمرقند . ثم لارتباطه من جهة أخرى بطبيعة العمليات ذاتها ، علاوة على (الحجم الكبير للقوى والوسائط ممـا تم زجه في المعركة) . ومهما كان عليه الموقف ، فان (طبيعة الحرب) لا تحتمل مناقشة الأساليب المتبعة للوصول الى الهدف ، وبذلك يكون قتيبة رائداً في هذا المجال ،

---

(١) راجع « الطريق إلى المدائن » ، احمد عادل كمال ، دار النفائس .

وتكون المباغتة هي العامل الأساسي في نجاح مخططاته الاستراتيجية [1] .

٢ ـ أمن العمل :

عندما فتح المسلمون خوارزم ، تقدم المجشر بن مزاحم السلمي من قتيبة وطاب اليه التحدث على انفراد ، وعندما تم له ذلك قال المجشر لقتيبة : « ان أردت السغد يوماً من الدهر ، فالآن ، فانهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا ، وانما بينك وبينهم عشرة أيام » وسأله قتيبة « هل أشار بهذا أحد عليك ؟ » وأجاب مجشر بالنفي ، وعاد يسأله : « وهل أعلمته أحداً ؟ » فأجاب المجشر بالنفي أيضاً ، وعندها قال قتيبة « والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك » .

---

(١) تذكر المصادر العربية . ان المراسل الذي بعث به قتيبة لاعلام الحجاج بن يوسف بفتح سمرقند ، هو ذاته الذي بعث به الحجاج إلى الخليفة الوليد ، وقد روى هذا المراسل ما يلي : « قدمت دمشق قبل طلوع الفجر ، فدخلت المسجد ، فاذا إلى جنبي رجل ضرير ، فسألني من أين أنت ؟ فقلت : من خراسان ، وأخبرته خبر سمرقند فقال (والذي بعث محمداً بالحق ، ما افتتحتموها إلا غدراً . وانكم يا أهل خراسان للذين تسلبون بني أمية ملكهم ، ثم تنقضون دمشق حجراً حجراً » .
(الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ وتاريخ الطبري ـ فتح سمرقند ٩٣ هـ) .

تمثل هذه المحاورة مفهوم (أمن العمل عند قتيبة) . فهو يضع مخططاته ، ويتخذ تدابيره ويقود قواته ، وهي جاهلة بأهدافها حتى يحين الوقت المناسب وذلك حفاظاً على سرية مخططاته وأهدافه من جهة وحتى يستطيع تحقيق المباغتة . ويظهر مفهوم أمن العمل أيضاً من تدابير قتيبة العملياتية ، وإكثاره من الاستطلاع واستخدام الجواسيس (العيون) . ويظهر ذلك بصورة واضحة من خلال متابعة قتيبة لتحرك قوات العدو من أجل دعم السغد أثناء حصار سمرقند ، وإعداد قتيبة قوة كافية قامت بنصب كمين على محور تحرك القوات المعادية ، وتمكنت من إبادتها . وإن متابعة هذه العملية هي برهان على **تنظيم قتيبة الدقيق لشبكة استطلاع واسعة** كانت تمده بالأخبار الدقيقة عند كل مرحلة ، كما تضمن له وصول المعلومات بصورة كافية وفي الوقت المناسب لاتخاذ التدابير المضادة . وبذلك استطاع قتيبة ممارسة عملياته في إطار من (أمن العمل المطلق) مع ضمان حماية قوات المسلمين من كل مباغتة مضادة . واذا تجاوزنا ذلك إلى وصية عقبة لقائد الحامية التي تركها في سمرقند فستظهر مرة أخرى تدابير الحيطة الكافية للوقاية من كل مباغتة وضمان أمن العمل لقوات المسلمين (لا تدعنّ مشركاً يدخل باباً من أبواب سمرقند إلا مختوم اليد ، وإن جفت الطينة قبل أن يخرج فاقتله . وإن وجدت معه حديدة أو سكيناً فما سواه فاقتله ، وإن أغلقت الباب ليلاً فوجدت فيها أحداً منهم فاقتله) وبذلك ضمن قتيبة تحقيق الاستقرار في قواعده المتقدمة مما كان يضمن

له قدراً كافياً من (أمن العمل) وهو في قاعدته الخلفية في مرو .

لقد قاد قتيبة قوات المسلمين على امتداد فترة عشرة أعوام ، لم ينكب المسلمون خلالها ، ولا بوغتوا بأمر غير متوقع ، ولا انتكست لهم راية ، ولا مزق لهم جمع ، مع العلم أنهم كانوا يعملون في أقاليم صعبة . أصبح التمرد عادة من عاداتها ، وأصبح الغدر بالمسلمين غير غريب عليها . وذلك برهان في حد ذاته على نجاح قتيبة في توفير جميع الشروط الضرورية لتحقيق (أمن العمل) . ولعل النقطة البارزة في تطوير قتيبة لمفهوم (أمن العمل) انما تكمن في تجاوز مجال المخططات العملياتية إلى الأفق الخاص بالسياسة الاستراتيجية ، فقد استطاع قتيبة ربط الأقاليم المجاورة ، باتفاقات ومعاهدات للسلام — ومنها اتفاقه مع الصين — بهدف منع كل عدوان على حدود المسلمين ، كما تبرز هذه الظاهرة أيضاً من خلال (تجريد المتمردين من أنصارهم) عن طريق الزامهم بتنفيذ اتفاقيات الصلح المعقودة معهم ، كل ذلك مما ضمن لقتيبة تحقيق أهدافه على مستوى العمليات وعلى مستوى السياسة — الاستراتيجية لإدارة الأقاليم الشرقية بكاملها .

٣ — القدرة الحركية :

غنم قتيبة من بيكند غنائم كثيرة فاشترى ١٢ ألفاً من جياد الخيل و ١٢ ألف هجين ، ودفع ثمن كل راحلة ٤ آلاف

درهم ، وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء ، وعندما أخذ في الاستعداد للغزو — وهو يريد نومشكت وراميثنه — قيّد الخيول ، وأضمرها حتى تذوب شحومها ، وتصبح أكثر خفة لتجاوز الأنهار ، وقفز الحواجز والسير في المسالك الوعرة ، ثم عهد بهذه الخيول إلى أشرف الفرسان ممن كان يدفعهم في الطلائع .

وكان قتيبة إذا رجع من غزاته كل سنة اشترى اثني عشر فرساً من جياد الخيل ، واثني عشر هجيناً ، فيتركها لمن يرعاها ويعتني بها حتى موعد الحرب فيحمل عليها من يدفعه في الطلائع .

لقد كان الاهتمام بتأمين القدرة الحركية لجيوش العرب المسلمين سنّة متبعة منذ بداية فتوح المسلمين ، وكان الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أول من خصص من فضول أموال المسلمين مبلغاً لشراء خيول في كل إقليم على قدره ، فكان في الكوفة منها أربعة آلاف ، ثم تابع القادة العمل بهذا المبدأ ، ولكن قتيبة وصل بهذا المبدأ حتى نهايته ، بحيث جهز قوات المسلمن لتكون بكاملها من القوات (الراكبة) وذلك ليضمن بها سرعة التحرك ، وقد كان ذلك استجابة لمتطلبات العمليات في أقاليم متباعدة ، ومناطق صعبة ، هذا بالاضافة الى أن تعاظم قوة الجيش قد فرض بالضرورة توزيع قواته على عدد من المناطق والمدن ، فكان من الصعب والحالة هذه حشد القوات في كل

عام وزجها في المعارك وقيادتها الى مناطق العمليات البعيدة والصعبة ، لولا توافر قدرة حركية عالية .

وقد يكون من الضروري هنا إضافة عامل جديد فرض نفسه على العمليات وهو عامل (المناخ والأحوال الجوية) فقد عُرف فصل الشتاء في خراسان وفرغانة وسمرقند (مناطق السغد) ببرودته الشديدة في الشتاء وثلوجه مما كان يعيق كل أعمال قتالية ، وعلى هذا فان مدة العمليات بقيت محددة بفصلي الربيع والصيف ، ولذلك فقد كان (عامـــل الوقت) من العوامل الحاسمة في تنفيذ العمليات ، وإذا قورن (العمل المطلوب) مع (المهلة الزمنية) ظهرت ضرورة توافر القدرة الحركية العالية للقوات حتى تستطيع الانطلاق من قواعد تمركزها الى مناطق حشدها ثم لتقوم بعملياتها وتعود بعد ذلك إلى قواعدها في حدود فترات زمنية معينة .

ويكون تطوير قتيبة للقدرة الحركية استجابة لهذه المتطلبات كلها ، علاوة على أن (طبيعة حروب العرب المسلمين) هي حروب حركة مما فرض الاهتمام بتأمين متطلبات هذه الحرب . ويبقى أخذ قتيبة بمجموعة العوامل هو الطابع المميز لأسلوبه القيادي . وقد يكون من المناسب هنا مقارنة اهتمام قتيبة بمجموعة العوامل وفي طليعتها العامل الجغرافي والمناخي مقابل اهمال (هتلر) لهذا العامل في الحرب العالمية الثانية ، وعلى نحو ما أهمله نابليون بونابرت من قبل، مما تسبب بهزيمتهما على الجبهة الشرقية(الروسية)

فقد كانت طبيعة الحرب في هذه الحالات كلها نوع من (نوع الحركة) . ولكن قتيبة اتبع من الأساليب ما لم يطبقه الآخرون فانتصر قتيبة وفشل غيره ، وبقي المسلمون هم سادة الدنيا على الاطلاق في حرب الحركة ، وبقي قتيبة رائداً في طليعة روادها .

٤ ـ المبادأة واستخدام القوة الهجومية :

تتطلب حروب الحركة والحروب التشتيتية والحصول على أمن العمل وكذلك تحقيق المباغتة، الحصول على المبادأة قبل كل شيء ، ووضع العدو تحت تأثير مواقف متطورة باستمرار مما يحرمه من فرصة تنظيم ردود فعل مناسبة أو تقديم مقاومات قوية . وتُظهر مطالعة مسيرة العمليات التي قادها قتيبة ، أنه لم يترك المبادأة لخصمه إلا في ظروف قليلة ونادرة ، وأنه كان حتى في مثل هذه الظروف يتخذ من التدابير السريعة ما يضمن انتزاع (المبادأة المحدودة) التي قام بها العدو ، لحرمانه من نتائج هذه المبادأة . وكان الأسلوب الرئيسي الذي كان يستخدمه قتيبة ـ بصورة خاصة ـ هو تطوير المواقف القتالية باستمرار لخلق المواقف المستجدة التي يعجز العدو عن مجابهتها ، ويقصر عن التعامل معها ، وعلى سبيل المثال : فعندما أنهى قتيبة صلح نومشكت ، قام الترك بالهجوم على مؤخرته ، فما كان منه إلا أن قام بهجوم بالكتلة الرئيسية مما ساعده على تدمير قوة العدو

(التي تزيد على مائتي ألف مقاتل بقيادة كوربفانون التركي – ابن أخت ملك الصين) . ويمكن متابعة سيره عمليات قتيبة بعد ذلك حتى نهايتها فيظهر حرصه على الامساك بالمبادأة في كل عملية من العمليات .

ولقد كان إمساكه بالمبادأة يقترن – كما هو مفروض – باستخدام القوة الهجومية، **فقد كان قتيبة يعتمد باستمرار على تجنب حرب المواقع والتحصينات**، وقد اضطر في بداية حياته القيادية إلى ترك بعض المقاومات دون تصفيتها نهائياً ، ودون الوصول الى الحسم في الصراع المسلح من أجل تجنب حرب المواقع التي تستنزف قوته ولا تضمن له الحسم ، ثم عدل بعد ذلك عن هذا الأسلوب ، فأصبح أكثر تصميماً على تدمير المقاومات مهما كانت قوية ، وذلك بعد اتخاذ ما يكفي من تدابير ادارة الحرب حتى يضمن النجاح . ولقد كان التوازن الرائع والحساب الدقيق في تقدير الموقف بين الحرص على المبادأة وبين استخدام القوة الهجومية من جهة وبين انجاز الواجب القتالي في حدود زمنية محكمة من جهة أخرى هو الطابع المميز لعمليات قتيبة . ويبقى بعد ذلك ما هو أكثر أهمية في أسلوب قتيبة القيادي ، وهو إعطاء المبادأة (المضمون السياسي). وأبرز صورة لهذه المبادأة السياسية ، اتصاله بنيزك ، وتهديده (بالقوة الهجومية) لحمله على الرضوخ – دون قتال – وكذلك ارساله وفداً (الى الصين) لعقد اتفاقات صلح سياسية ، ورغم ظهور الملامح (المبادأة السياسية) و (استخدام القوة الهجومية)

في عدد من المناسبات (أثناء فتح اليرموك والقادسية ونهاوند) وسواها من أعمال الفتوح البارزة . الا أن المبادأة السياسية لم تكن أكثر وضوحاً مثلما ظهرت في عهد قيادة قتيبة لعمليات فتوح الشرق .

٥ — مبدأ الاقتصاد بالقوى :

لقد تمثل مبدأ الاقتصاد بالقوى عند قتيبة بتجنب مهاجمة العدو في أقوى نقاطه ، والتركيز على « **هدف واحد** » مما يضمن له التفوق الساحق على نقطة ضعف العدو . ومن الملاحظ أن عمليات قتيبة تمركزت في كل عام لتحقيق هدف رئيسي واحد أو مجموعة أهداف ثانوية . وبذلك أمكن له المحافظة على قواته دون تبديدها في هجمات عديدة ، أو مجابهة قوات متفوقة قد تدمر قواته وتستنزفها ، هذا كما أن تجنبه للاصطدام بالقلاع كان نوعاً من « **الاقتصاد بالقوى** » ويظهر ذلك عندما هاجم نيزكاً بعد امتناعه في المناطق الصعبة ، فلم يحاول قتيبة زج قواته (بالقوة) وانما اعتمد على مشاغلة قوات خصمه ريثما توافرت له فرصة للقيام بعمليات تسلل الى ما وراء التحصينات المسيطرة على مدخل الوادي (فم الشعب) ثم تكررت هذه العملية مرة أخرى عند حصاره لقوات نيزك ذاتها ، فلم يلجأ الى الدخول معها في معركة جبهية ، وانما اكتفى بتطويقها واحكام الحصار حولها . وعندما شعر أن الوقت قد حان لاستنزال خصمه ،

أرسل اليه من يقنعه بالاستسلام (دون قيد أو شرط) حتى لا يلزم نفسه بعهد لا يستطيع إلا الوفاء به . وأمكن له حمل خصمه على التسليم وانهاء المعركة ، دون قتال . ويلاحظ هنا أن الوصول الى مبدأ الاقتصاد بالقوى قد حمل قتيبة على استخدام مجموعة من المبادىء ، أولها المزج بين (الهدف السياسي والهدف العسكري) مما ضمن له تحقيق مبدأ الاقتصاد بالقوى عن طريق (استراتيجية الهجوم غير المباشر) ، وكذلك استخدام مبدأ الحصار الاقتصادي والعزل عن الموارد الحياتية واتباع طرائق (الارهاب النفسي) مما ساعد على تحقيق الهدف بحد أدنى من الخسائر . أما في مجال مهاجمة القلاع والحصون فقد استخدم قتيبة مبدأ التركيز على نقطة ضعف واحدة لتحقيق (الاقتصاد بالقوى) ويظهر ذلك بوضوح عند (حصار سمرقند) وحشد القوى كلها ضد الثلمة (الثغرة) وزج الجنود حتى أمكن لهم اقتحامها . أما النقطة الأكثر أهمية في حرص قتيبة على تحقيق مبدأ الاقتصاد في القوى ، فتظهر من خلال منع قيام كل تحالف ضده ، وإسراعه لضرب قوى التحالف قبل تجمعها ، وبذلك كان يضمن لنفسه التفوق الساحق ضد قوات العدو المتفرقة . وقد كان لزاماً على قتيبة القيام بمناوراته على خطوط متباعدة ، مع اجراء حركات التفاف طويلة حتى يضمن الوصول الى أهدافه ، دون أن تفقد قواته حماستها أو قدرتها القتالية . ويظهر من ذلك كله الاطار العام لعمليات قتيبة المتميز بشدة تعقيده ، واشتباك عدد من مبادىء الحرب لتحقيق استراتيجية

واحدة أو عدد من الاستراتيجيات تلتقي كلها عند الهـــدف السياسي ، وقد يكون من المناسب هنا تجاوز ألف سنة من عمر الزمن للقفز مرة واحدة من **حروب قتيبة الى الحروب النابوليونية. حيث نجد تشابهاً بين هذه العمليات وبين تصدي نابليون لعمليات غزو فرنسا في موقعي فالمي ، وجيماب عام ١٧٩٢ ومعارك الراين عام ١٧٩٦، واذا ما وضعت نوعية الوسائط وحجم القوى المستخدمة جانباً فثمة تشابه كبير** في المخططات العملياتية والأسس الاستراتيجية لعمليات اجتياح الألمان للغرب . ويأتي التشابه بصورة خاصة من (تشابه أساليب حرب الحركة) ومن تشابك مبادىء الحرب في مخطط واحد . **وبذلك تصبح عمليات قتيبة ذات ظلال متقدمة تتجاوز حدود الزمن بأكثر من ألف عام .**

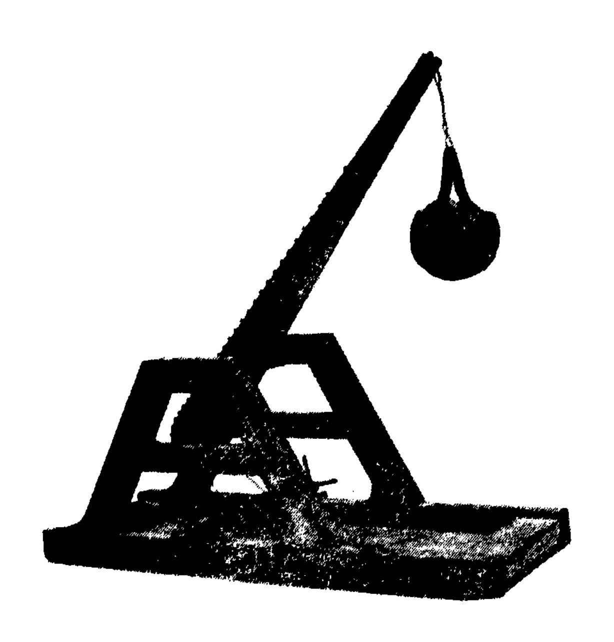
٦ ـ المحافظة على الهدف :

كان الهدف السياسي الذي ركز قتيبة جهده لانجازه هو ضمان الأمن وتحقيق الاستقرار في فارس وخراسان . وكان هذا الهدف السياسي يتطلب تحقيق مجموعة من الأهداف العملياتية التي بدأها بالأقاليم التي سبق فتحها ثم انتقضت على المسلمين ، وارتدت عن ولائها وتمردت ضد الدولة الاسلامية ، ثم أخذ قتيبة بعد ذلك في (توسيع دوائر عملياته) عاماً بعد عام (مثل استراتيجية بقعة الزيت) أو (استراتيجية تقشير الحرشوفة) .

كل ذلك ضمن إطار الهدف السياسي الواحد (وهو المحافظة على الهدف) . وقد أدرك قتيبة - دون ريب - أن تحقيقه لهذا الهدف يفرض عليه القضاء على قواعد العدوان التي كانت مراكز تحريض قوية (فيما وراء النهر) . وكان عمله للقضاء على هذه القواعد ، هو الذي ضمن له تحقيق بقية منجزاته العملياتية والاستراتيجية ، ويظهر ذلك مرة أخرى التكامل في الأسس الاستراتيجية ومبادىء الحرب مما اعتمده قتيبة في حروبه المتصلة والمستمرة .

يظهر بعد ذلك (**المحافظة على الهدف**) **عند قتيبة من خلال إصراره على تحقيق أهدافه التكتيكية والعملياتية وعدم الانتقال الى غيرها قبل إنجازها** . فقد حاصر قتيبة نيزكاً ولم ينصرف عنه حتى استنزله وقضى على تمرده ، ووقف أمام بخارى ولم ينصرف عنها حتى أخضعها . وحاصر سمرقند ولم يغادرها حتى فتحها عنوة ووضع حامية للدفاع عنها . وكان إنجازه لهذه الأهداف المرحلية هو الذي ضمن له تحقيق هدفه السياسي . وقد ظهرت خلال ذلك مجموعة من العوامل (كحصول أعمال تمرد ، أو القيام بهجمات غير متوقعة) ولكنها لم تتمكن كلها من صرف قتيبة عن هدفه الأساسي أو تحويل هذا الهدف الى أهداف تبادلية أخرى قد تبتعد به عن هدفه الأول . وقد حاول الترك (أهل بيكند) خداع قتيبة ، وتحويله عن هدفه بارسال جاسوس اسمه (تنذر) كان قتيبة يستخدمه عيناً له . وقد أدرك قتيبة هذه الخديعة وقتل تنذر ، وغير من أساليبه القتالية، دون أن ينصرف

عن هدفه أو يتحول عنه ، مما أضعف إرادة القتال عند (أهل بيكند) وحملهم على الاستسلام لارادة قتيبة ، والخضوع للعرب المسلمين . ويظهر تصميم قتيبة في بلوغ هدفه السياسي (والمحافظة عليه) بشكل واضح أيضاً من خلال إصراره على الشروط التي وضعها للصلح مع ملك الصين . وقد تظهر هذه الشروط للوهلة الأولى – انها شروط معنوية ، أكثر منها مادية ، وأنها شروط بسيطة لا تتطلب مثل هذا التصميم ، ولكن إذا وضعت هذه الشروط في إطار (الهدف السياسي) فستظهر أهميتها بشكل واضح . فقد كان هدف قتيبة (تأمين حدوده في أقصى الشرق) وحمل الصين على عدم تقديم أي دعم للقوى المضادة . ولهذا كان (حجم الشروط) يتوافق مع (حجم الهدف) . وتتعاظم أهمية التوازن بين الشروط والهدف عند معرفة أن هذا الاتصال كان هو الاتصال الأول مع ملك الصين . فكان ذلك بمثابة (احتكاك أو تماس أولي) من أجل سبر الموقف . وقد حدث ذلك في فترة صعبة بعد موت الحجاج ، وموت الخليفة (الوليد) . فلم يكن باستطاعة قتيبة التورط في صراع لا يضمن نتيجته ، فكان (تحديد أهداف متواضعة) والتصميم على (تنفيذها) هو المخرج الوحيد لمجموعة المواقف التي جابهها قتيبة خلال أحرج فترة من ولايته ، ولعل ذلك أروع ما في موقف قتيبة من مبدأ (المحافظة على الهدف) .



الفصل الثالث

قيادة قتيبة بن مسلم الباهلي

آ – قتيبة بن مسلم الباهلي وفن القيادة

١ – الاهتمام بالشؤون الادارية (اللوجستيك)
٢ – العنف في القضاء على أعداء المسلمين
٣ – التحريض والحض على القتال
٤ – الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر
٥ – القرارات الصحيحة
٦ – حماية المرؤوسين

ب – قتيبة بن مسلم الباهلي وقوات المسلمين

١ – الاستعداد الدائم للقتال
٢ – الروح المعنوية العالية
٣ – الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب
٤ – قتيبة وما يعرف حديثاً (بالحرب الشعبية)
٥ – قتيبة وحرية العمل
٦ – الانضباط والطاعة



آ ـ قتيبة بن مسلم الباهلي وفن القيادة

١ ـ الاهتمام بالشؤون الادارية (اللوجستيك)

عندما أراد قتيبة ، غزو نومشكت (عام ٨٨ هـ = ٧٠٧ م) ندب الناس في وقت مبكر من بداية الربيع وقال لهم : « اني أغزيكم قبل أن تحتاجوا الى حمل الزاد ، وانتقلكم قبل أن تحتاجوا الى الادفاء » وعندما فتح قتيبة بيكند وجد في خزائنها (مستودعاتها) سلاحاً وآلة حرب كثيرة فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في دفع ذلك السلاح إلى الجند ، فأذن له ، فأخرجوا ما كان في الخزائن من عدة الحرب وآلة السفر ، فقسمه في الناس ، فاستعدوا (للحرب) .

وكانت غنائم قتيبة في بيكند وفيرة ، فاشترى ١٢ ألفاً من جياد الخيل و ١٢ ألف هجين ، ودفع ثمن كل راحلة ٤ آلاف درهم ، وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء . وتظهر هذه الشواهد اهتمام قتيبة الكبير بالشؤون الادارية ، وتجهيز القوات

المسلحة بما هو ضروري من الوسائط . ومما يجتذب الانتباه هنا تركيز الاهتمام بتجهيز الجيش بوسائط النقل مما تتطلبه (حرب الحركة) ، ثم اتباع الطرائق العملياتية التي تضمن للقوات ما هو ضروري (للتأمين الاداري) من مسرح العمليات ، والقيام بالعمليات في الوقت الذي تتوافر فيه امكانات (التعايش) من الأقاليم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان توزيع القوات على مناطق مختلفة كان يضمن لهذه القوات (ما هو ضروري للتعايش من وسط الاقليم) بالاضافة الى توفير متطلبات الأمن . وتبقى القضية الاساسية هنا قضية زيادة حجم الجيوش ، فقد أصبحت قوات العرب المسلمين، تقوم بعملياتها – وهي تزيد على ٦٠ ألفاً ، حسبما تتضمنه الشواهد التاريخية ، – بحسب ما تتطلبه طبيعة مسرح العمليات ، وأصبحت هذه القوات (راكبة) على الأغلب ، فكان حجم قوة الفرسان يعادل نصف تعداد القوات أو يزيد ، وعلاوة على ذلك ، **فقد ظهر التخصص في عمليات الجيوش** (كاستخدام الفعلة – المهندسين– لتدمير التحصينات والتغلب على العوائق بالاضافة الى استخدام وسائط القتال الجماعية – كالمنجنيق –) وقد تطلب هذا التطور زيادة حجم الامداد الاداري . وزيادة الأعباء الادارية الملقاة على عاتق القائد . وهنا يبرز الدور الكبير للقائد قتيبة ابن مسلم ، في تطوير مفهوم (التأمين الاداري) وإمداد القوات بمتطلباتها ، ووضع مخطط العمليات لتحرك القوات دون أن يشكل (الذيل الاداري) أي عائق يعيق (حرب

الحركة) ولقد برهن التاريخ (حتّى قبل ظهور العرب المسلمين في عالم فن الحرب) على اهتمام عدد من القادة — كالاسكندر الكبير — بموضوع تأمين التوافق بين المتطلبات الادارية والضرورات العملياتية ، ولكن الاختلاف في حجم القوات من جهة ، حيث أصبح حجم القوات المسلحة في عهد قتيبة أكبر مما كان عليه من قبل ، بالاضافة الى تحقيق التوازن بين طرفي معادلة — الشؤون الادارية والمتطلبات العملياتية هو الذي منح قتيبة ميزة السبق على كل من سبقه ، ووضعه في مرتبة الريادة بين قادة حرب الحركة المتفوقين في التنظيم الاداري. وان إقدام قتيبة على إرسال الغنائم والأثقال بصورة مستقلة عن تحرك القوات . لا تعني في الواقع أكثر من تحرير القوات من أعباء (الذيل الإداري) وتوفير الفرصة للتحرك بمرونة وفق متطلبات العمليات . وعلى هذا يبقى الاعتبار الأول عند قتيبة هو الاعتبار العملياتي والتكتيكي . وذلك دون إهمال للمتطلبات الادارية أو الانتقاص من أهميتها في التأثير على (المتطلبات العملياتية) وان هذا التوازن الرائع هو من أفضل منجزات قتيبة في (فن الحرب) .

٢ — العنف في القضاء على أعداء المسلمين :

عندما أراد (تنذر) الغدر بالمسلمين ، والتعاون مع أهل بخارى للكيد لهم وصرفهم بحجة (عزل الحجاج) وأدرك قتيبة

كذب (تنذر) أمر بقتله . وعندما فتح المسلمون بخارى ، أراد الذي استثار أهلها وحرضهم على قتال المسلمين ، فداء نفسه ، وقدم نفسه لقتيبة قائلاً « أنا أفدي نفسي بخمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف » فكان رد قتيبة : « لا والله ، لا تروع بك مسلمة أبداً » وأمر بقتله .

وعندما تمرد ملك (مرو الروذ) ثم أدرك أنه لا قبل له بمجابهة قتيبة بعد أن علم بزحف قتيبة اليه ، فر إلى الجبال ، ووصل قتيبة إلى (مرو الروذ) وأخذ ابنين للملك مرو الروذ وقتلهما . وعندما تمرد (نيزك) وغدر بالمسلمين ، وألقى قتيبة القبض عليه قتله ومعه عدد من أصحابه . ثم غدر ملك الجوزجان برّهن (رهائن) قتيبة وقتلهم فكان رد قتيبة أن قتل رهن ملك الجوزجان . وتلك هي بعض الشواهد على أسلوب قتيبة في القضاء على أعداء المسلمين . **وقد تأخذ بعض أعمال قتيبة طابع القسوة ، ولكن هذه القسوة لا تتجافى أبداً مع العدالة أو تتناقض معها** . ذلك أنه عندما كان يمضي قتيبة صلحاً مع أهل اقليم من الأقاليم ، كان ينصرف عن أهلها دون أن ينزل بهم أو يقترب منهم ، كما أنه عندما كان يمضي صلحاً مع أهل إقليم بعد تمردهم ، لم يكن يتعرض لغير المقاتلين بسوء أو ينال منهم بأذى ، وواضح من ذلك أنه انما كان يستخدم القسوة (كعامل ردع) حتى يتمكن من السيطرة على الموقف ، وحتى لا يفكر أحد بالنيل من المسلمين أو إلحاق الأذى بهم، ويتأكد ذلك من نص رسالة قتيبة إلى نيزك (التي هدده فيها بالحرب إن هو لم

يقدم للقاء قتيبة) كما يتأكد ذلك أيضاً من اجراء قتيبة في الطالقان (حيث جمع اللصوص فقتلهم وصلبهم) وأخيراً يتأكد ذلك أيضاً من خلال شروط قتيبة للصلح مع ملك الصين . حيث يطغى العاملُ المعنوي على العامل المادي في الشروط المحددة للصلح . وهنا قد يصعب تفسير سلوك قتيبة دون العودة إلى ظروف العمل في الاقليم ، فقد تعرف أهل الاقليم على الاسلام والمسلمين طوال أكثر من نصف قرن ، وأسلم أكثرهم ورضي الصلح بقيتُهم، ولم يبق إلا جيوب متمردة تعمل على تحريضها فئات قليلة ممن لم يدخل الاسلام في قلوبهم ، **فكان أسلوب (الردع) هو الأسلوب الأفضل والأمثل مع مثل هذه الفئات .** وعلاوة على ذلك ، فقد كانت قوة المسلمين قليلة بالنسبة لاتساع الاقليم وبالنسبة لحجم الفتوحات ، فكان من الضروري والحالة هذه تحقيق الاستقرار حتى يتم بناء المجتمع الجديد في مناخ من الأمن والطمأنينة . وعلى هذا كان (أسلوب القضاء على أعداء المسلمين) هو الأسلوب الوحيد الذي يمكن اتباعه لمعالجة مثل تلك المواقف . ويظهر بعد ذلك كله ، وبوضوح تام الشكل المميز لأسلوبين من أساليب التعامل ، أولهما مع المسالمين من أهل البلاد (المدنيين) وثانيهما المقاتلين من أعداء المسلمين ، حيث يتبع مع الأولين اللين والتساهل ومع الآخرين البطشَ والقسوة ولعل هذا التمييز الذي يرتبط أصلاً بعقيدة الاسلام القتالية هو أروع ما في صورة (عدالة حرب المسلمين) وهي صورة ظهرت بأبعادها الكاملة في حروب قتيبة بن مسلم الباهلي .

ووفقاً لهذا المضمون ، فان القسوة مرتبطة (بقوانين الحرب) ويصبح (القضاء على أعداء المسلمين) بعضاً من هذه القسوة التي تتطلبها الحروب ، وبعضاً مما تفرضه شرائعها منذ عرف التاريخ الحرب .

٣ ـ التحريض والحض على القتال :

يعتبر الاسلام أول عقيدة دينية حرضت على القتال وحضت عليه ، وهذه هي إحدى السمات المميزة التي تربط العقيدة الدينية بالعقيدة القتالية عند العرب المسلمين ، وقد برزت هذه الرابطة القوية في جميع حروب المسلمين ومعاركهم ، فاذا تجاوزنا ذلك الى طبيعة الانسان العربي ، وجدناه يرتجز شعر الحرب لاثارة الحماسة والتحريض على القتال . والتذكير بقيم الانسان العربي من شجاعة واقدام وفروسية وكرم وتضحية للدفاع عن المثل التي يؤمن بها الانسان العربي ويعتنقها . وقد تبدلت أكثر القيم بظهور الاسلام ، فحل الفخر بالعرب المسلمين محل الفخر بالقبيلة وحلت قيم الاسلام محل القيم الجاهلية ، وأصبح للجهاد مضامين تتجاوز النزعات الفردية والحوافز القبلية الضيقة ، وانفتح الاسلام على العالم ، فكان الدفاع عن هذه القيم يحمل في مضامينه أبعاداً انسانية واجتماعية شاملة . وقد سحرت لغة القرآن عقول العرب ، وطغت بلاغة القرآن على (كل شعر الرجز) . وأخذ القادة العرب يستثيرون

حماسة المقاتلين بتذكيرهم بما جاء به القرآن الكريم من الهدى ، وظهر ذلك على لسان قتيبة في أول حديث له مع المقاتلين عندما جمعهم في خراسان (وهي الكلمة المثبتة في مقدمة هذا الكتيب). وقد انتقى قتيبة في حديثه مجموعة الآيات التي توضح حجة القتال وذريعته (هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِ ليُظْهِرهُ على الدين كُلِّه ولو كَرِهَ المشركون)[1] ثم هو يذكرهم بحسن ثواب الآخرَة ، (ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وقد يكون من المحتمل أن يأتي استشهاد قتيبة بهذه الآية عفوياً ودونما عمد للحض على القتال . ولكن ذكر هذه الآية في منطقة عمليات تكثر فيها الأودية الصعبة والمناطق الوعرة ، إنما هو أمر كاف لاثارة الحماسة ، ودفع المقاتلين إلى احتمال كره القتال مع ما في ذلك من نَصَبٍ ومشاق . ثم يتابع قتيبة أسلوبه في التحريض على القتال معتمداً على (صلابة العقيدة الدينية) . فهو في مسيره ، وبعد اتخاذ كل الترتيبات الضرورية يخاطب جنده بقوله « سيروا على بركة الله » وهو يحض على قتال المرتدين وفقاً لمضمون الآية الكريمة ونصها (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) وهو يربط بين غدر المرتدين في خراسان ، وغدر يهود النضير وقريظة بما كانوا قد عاهدوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويذكرهم بالآية (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها)[2]

(١) سورة الصف ، الآية ٩ .

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢١ .

وهو يطالب جنده بتصفية جيوب التمرد على نحو ما سبق تنفيذه في الحكم على يهود النضير وقريظة . ويظهر ذلك كله عمق العقيدة الدينية في نفس قتيبة ، واستلهامه الشواهد من نصوص القرآن الكريم للحض على القتال ، ثم هو ينهج أسلوب القرآن ذاته في محاولة إثارة المقاتلين وتحريضهم على الجهاد .

وبعد قد يكون أسلوب التحريض على القتال وكذلك مضمونه واحداً أو متشابهاً عند القادة من العرب المسلمين جميعاً ، بحيث يصعب اعطاء قتيبة طابعاً مميزاً ، أو أسلوباً خاصاً ، ولكن اعتماد قتيبة رغم ذلك لهذا الأسلوب انما يعني عدم اهمال قتيبة لأي عامل أو أي مبدأ من مبادىء (عقيدة القتال الاسلامية) وهذا في حد ذاته برهان على تكامل المؤهلات القيادية عند قتيبة ابن مسلم الباهلي ، القائد الرائد ، والانسان المسلم ، والرجل المؤمن، **والمقاتل الصلب الذي ما عرف السكون أو الراحة على امتداد أكثر من عشر سنين .** وكانت تلك الصفات بمجموعها هي التي ضمنت له النجاح الرائع في ممارسة قيادته .

٤ ـ الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر :

خلال مطالعة سيرة قتيبة يتكرر أكثر من مرة وصف موقفه عندما يحتدم القتال ويشتد الصراع وذلك من خلال العبارات التالية : (برز قتيبة بسريره ، وقعد عليه ليتابع المعركة ، وحمل السغد على المسلمين حملة حطموهم حتى

جازوا عسكرهم ، وقتيبة محتب بسيفه ، ما حل حبوته ، وانطوت مجنبتا المسلمين على الذين هزموا القلب ، فهزموهم حتى ردوهم الى عسكرهم) وهكذا ، ورغم خطورة الموقف وانتصار أعداء المسلمين وتدميرهم لقوة القلب في المرحلة الأولى من المعركة ، فان قتيبة (ما حل حبوة سيفه) وانما بقي هادئاً يتابع المعركة ، ويصدر أوامره الى المجنبتين (بتطويق) القوات المتوغلة في أثر القلب ، والعمل على تدميرها . وليس المطلوب من القائد في مثل هذا الموقف أن يجرد سيفه ، بقدر ما هو مطلوب منه المحافظة على رباطة جأشه لادارة المعركة بصورة صحيحة والافادة من أخطاء العدو ، وهي هنا التوغل وراء قوات القلب المنهزمة ، وتحويل الموقف بصورة جذرية ، وهذا ما فعله قتيبة ، وبذلك تجاوز مرحلة (استخدام قوته الجسدية) ليستخدم بصورة صحيحة (قوته الفكرية) . وتلك هي أعلى مراحل الشجاعة في مواجهة مواقف الخطر . وهناك صورة أخرى تبرز هذه القدرة وذلك من خلال متابعة عملية الكمين الليلي الذي وجهه قتيبة بقيادة أخيه عبد الرحمن لمجابهة قوات دعم العدو المتوجهة لنصرة السغد ، فخلال هذه المعركة ، ظهر قتيبة على غير ما هو متوقع واشترك في القتال ، مع العلم أنه لم يكن في حاجة إلى ذلك بعد أن اتخذ من التدابير ما هو ضروري لمجابهة الموقف ، ولكنه فضل العمل مع القوة التي تقوم بواجب رئيسي في ظروف صعبة ، فوقف مع قوة الكمين ، واشترك في قتالها ، وبوغت أحد المقاتلين عندما عرفه فسأله (وقد وجه

ضربة أعجبته» كيف ترى بأبي أنت وأمي ؟ » ولكن قتيبة لم يرغب في افتضاح أمر اشتراكه وأراد تعليم (المقاتل) بمبادىء القتال الليلي ، وأولها (الصمت) فقال له : « اسكت ، دق الله فاك » . ثم يعود قتيبة الى معسكره دون أن يفطن لوجوده أحد . فيستقبل المقاتلين ، ويمنحهم ما غنموه ، ويجزل العطاء لمن أبلى بلاء حسناً ، دون أن يذكر أنه عرف بلاءهم وحسن جهادهم . ودون أن يذكر حتى سبب إكرامه لمن أظهروا شدة بأس في القتال ، فكان هذا التصرف كاف حتى يشعر جميع المقاتلين أن قتيبة معهم باستمرار وأنه يتابع أعمالهم جميعاً ، ويعرف المقاتل القوي ، ويميزه عن سواه فيندفع الجميع للتجاوب مع شجاعة قائدهم في مواجهة مواقف الخطر ، وتتحول قوة المسلمين بكاملها الى كتلة من (الشجاعة التي تجابه الأخطار وتتحداها) وبذلك أيضاً يكون قتيبة قد تجاوز مرحلة (الشجاعة الفردية في مواجهة مواقف الخطر) وحولها الى (شجاعة اجماعية) قادرة على مجابهة كل الأخطار .

لقد كان قتيبة يستمد من ايمانه العميق مورد الشجاعة التي تعينه على مجابهة مواقف الخطر ، شأنه في ذلك شأن قادة العرب المسلمين جميعاً ، وعلى هذا فانه لم يكن يقدر قيمة (الخطر) الا بقدر (أداء الواجب) ويظهر ذلك من وصف صورة قتيبة خلال حصار سمرقند ، حيث وقف مقاتل من جند الأعداء ليشتم قتيبة باللغة العربية الفصحى ، وهنا لم يعتبر قتيبة أن الشتائم موجهة لشخصه بقدر ما هي موجهة له كقائد للمسلمين ، ويقترب أحد

القادة المسلمين من قتيبة (فيجده وهو محتب بشملة ، ويردد كالمناجي لنفسه : **حتى متى يا سمرقند يعشش فيك الشيطان ، أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية**) وهو هنا لم يعتبر الذي شتمه – فرداً – وانما اعتبره ناطقاً بلسان المشركين ، فصمم على (ازالة الشرك من سمرقند) وبذلك كانت نظرته لدوره كواحد من المسلمين ، ونظر لمن شتمه كواحد من المشركين ، ومن خلال هذا التصميم كانت تتوحد عند قتيبة (عقدة المسلمين وقوتهم القتالية وامكاناتهم الفردية في اطار المجموع) ومن خلال هذا الكل المتكامل كان قتيبة يستمد شجاعته . ولكن ذلك لا يعني حرمان قتيبة من موارد الشجاعة ، بمقدار ما يعني توجيه هذه الشجاعة الفردية لتكون جزءاً من شجاعة المجموع في خدمة القضية التي يقاتل المسلمون من أجلها (فَيَقْتُلون ويُقْتَلون) دون اعطاء أهمية في ميدان المعركة لمن قَتَل أو قُتِلَ بقدر اعطاء الأهمية لانجاز الواجب وتحقيق النصر ، وتلك هي شجاعة القائد الحقيقية في مواجهة الخطر .

٥ – القرارات الصحيحة :

ربما كانت انتصارات قتيبة الكبرى وفتوحاته الواسعة هي أوضح برهان على صحة قراراته ، ولكن رغم ذلك فقد يكون من الضروري تجاوز هذه المقولة الشمولية ، في محاولة لمعرفة المعطيات التي كان يستند إليها قتيبة من أجل اتخاذ قراراتـــه .

ان أول المعطيات التي كان يعتمدها قتيبة هي الاستطلاع الجيد لمعرفة شؤون العدو ونواياه ، وتنظيم شبكة محكمة من الجواسيس (العيون) مع المحافظة على السر ، واتخاذ تدابير الحيطة القوية ، ويظهر ذلك من خلال مجموعة الأحداث التي أحاطت بعمليات قتيبة ورافقتها ، فعندما حاول قتيبة فتح بيكند ، وشدد قبضته على أهلها ، حاول هؤلاء خداع قتيبة باستخدام أحد جواسيسه (وهو تنذر الفارسي) وجعله عميلاً مزدوجاً يعمل للطرفين المسلمين وأعدائهم ، وعندما جاء تنذر إلى قتيبة ، وطرح عليه مقولته ، استدعى قتيبة مولاه سياه وأمره بضرب عنق تنذر ، مما يشير بوضوح إلى توافر معلومات كافية عند قتيبة أنقذته من (شراك الخداع) ثم انه هدد ضرار بن حصين الضبي الذي عرف القصة بكاملها ، وطلب اليه المحافظة على السر ، وكان مما قاله له : « **لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك،وإني أعطي الله عهداً إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنك به ، فاملك لسانك** » . وكذلك فعندما استأذن نيزك من قتيبة الانفصال عنه ، سمح له بذلك ، ثم أدرك بسرعة أن نيزكاً انما يريد الغدر بالمسلمين فاتخذ الاجراءات الكافية لاحباط كلّ محاولة قد تنال من المسلمين غرّة أو تباغتهم بما هو غير متوقع .

وكان تقديره للأمور صحيحاً عندما حاصر نيزكاً ، وعرف أن قدرته القتالية قد استنزفت ، فبعث اليه من يفاوضه على الاستسلام غير المشروط . وكان أكثر قراراته صحة توجهه الى

سمرقند بعد فتح خوارزم مباشرة ، مما ضمن له الظروف المناسبة لتحقيق النجاح . وتظهر قرارات قتيبة الصحيحة بعد ذلك في أسلوب تنظيمه للقوات ، وفي طريقة تحركها (على شكل مجموعتين قتاليتين متتابعتين) وتحديد الفواصل بين المجموعتين بحسب الموقف مما ضمن له تجنب المباغتة والامساك بالمبادأة . كما تظهر قراراته الصحيحة في اقامة الكمائن لقوات العدو على محور اقترابها ، وتحديد المكان المناسب لاقامة الكمين بحيث يمكن الافادة من مجموعة الظروف (الليل ، والمكان الوعر ، ووجود القوات في مكان لا يتوقعه العدو) . وتظهر صحة قرارات قتيبة بعد ذلك في معالجة المواقف جميعها من خلال هدف (السياسة — الاستراتيجية للحرب) ولم يكن إرسال الوفد الى الصين ، وانتقاء أفراده سوى نتيجة لهذه القرارات الصحيحة . كما تظهر صحة قراراته أيضاً من خلال مجابهة أعمال العدو بردود فعل مناسبة فعندما انتقى ملوك الشاش وإخشاذ وفرغانه أقوى فرسانهم لدعم أهل السغد ، عمل قتيبة على انتقاء أشجع الفرسان وزجهم في مواجهة خصومهم . وعندما طلب غوزك ملك السغد إلى قتيبة قتاله بقوات العرب المسلمين فقط (حتّى لا يقاتله بأبناء عمومته وأهله وعشيرته) استجاب قتيبة لهذا الموقف ولكنه عمل على انتقاء المقاتلين الأشداء حتّى استطاع احراز النصر . وهنا لا يمكن اهمال عامل دراسة الأرض من بين مجموعة العوامل التي اعتمدها قتيبة عند اتخاذه لقراراته ، إذ لم يكن ارساله للطلائع ، مع تحديد أسلوب عملها وتنظيم

واجباتها ، إلا لمعرفة المزيد من الطبيعة الجغرافية للاقليم ، واتخاذ القرارات المناسبة بحسب المواقف ، وعلاوة على ذلك فان تحديد توقيت العمليات في كل سنة (للافادة من فصلي الربيع والصيف) انما هو برهان أيضاً على أخذ قتيبة بجميع العوامل التي تساعده على اتخاذ قراراته الصحيحة . وهكذا يمكن من خلال هذا العرض الوصول الى نتيجة محددة وواضحة وهي أن عوامل تقدير الموقف الحديثة (العدو — الأرض — القوات الصديقة — الأحوال الجوية) قد وجدت لها مرتكزات ثابتة عند القائد قتيبة ، وقد كانت هذه المرتكزات هي الأساس فيما كان يتخذه من (قرارات صحيحة) .

٦ — حماية المرؤوسين :

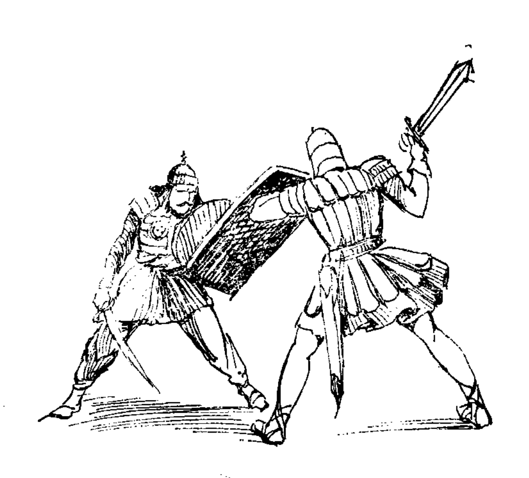
ليس بالامكان فصل تدابير (حماية المرؤوسين) عن مبدأ (أمن العمل) وفقاً لما سبق ذكره ، كما أنه من المتعذر أيضاً عزله عن بقية المبادىء أو المعطيات الواردة في فقرات (الحرص على العنصر العربي — دعامة الاسلام ، أو مبدأ الاقتصاد بالقوى) ولكن أول ظاهرة تستحق الوقوف عندها في مجال الممارسة العملية هي التعليمات المشددة الى حكام المدن والأقاليم لاتخاذ تدابير الحيطة بما يكفل حماية المرؤوسين . والظاهرة الثانية ، هي الاحتفاظ بالرهائن (الرهن) مقابل من يتم ارسالهم من المراسلين ، والعمل على قتل الرهن فور تعرض المرؤوسين

المسلمين للقتل أو الأذى . والظاهرة الثالثة هي الانتقام لكل مرؤوس أو حليف للمسلمين يغدر أعداؤه به .

لقد عين قتيبة لقيادة القوات المحاربة في خوارزم أحد قادته (وهو إياس بن عبد الله بن عمرو) كما عين لجباية خراجها (عبيد الله بن أبي عبيد الله مولى بني مسلم) وقد أظهر الرجلان ضعفاً أغرى أهل خوارزم بالتمرد ، فما كان من قتيبة إلا أن بعث أخاه (عبيد الله بن مسلم) وطلب اليه ضرب قائد القوات المحاربة ولم يكن هدف قتيبة من إجرائه – على ما فيه من قسوة – سوى حماية المرؤوسين . وقد برهن هذا التدبير على فاعليته ، بحيث لم يجابه قائد القوات التي وجهها قتيبة لقتال أهل خوارزم المتمردين (المغيرة بن عبد الله) أي مقاومة ، نظراً لتخاذل أهل خوارزم وعدم نصرتهم لزعماء التمرد . بعد أن عرفوا بطش قتيبة وحرصه على حماية مرؤوسيه . وعندما غدر أهل سمرقند (بملكهم طرخون) حليف قتيبة ، زحف قتيبة بجيشه ، وشعر أهل سمرقند بالخطر المحدق بهم ، فحاولوا عقد صلح جديد مع قتيبة ، ولكنه رفض عقد أي صلح قبل الانتقام لطرخون وأكد ذلك بقوله : « أنا ثائر بدم طرخون ، كان مولاي وكان من أهل ذمتي » وعندما استسلمت سمرقند ، رفض قتيبة دفع رجاله لاقتحامها قبل الحصول على عدد معين من الرهن . وعندما حصل على ما يريد ، قال لرجاله : « الآن ذلوا حين صار اخوانهم وأولادهم في أيديكم » ثم سمح بدخول مرؤوسيه الى المدينة . ولم يكن إخلاء سمرقند من أهلها بعد

ذلك ، سوى تدبير وقائي هدفه حماية المرؤوسين من كل غدر بعد أن تكرر تمرد المتمردين فيها وعصيان العصاة في إقليمها . وتلك هي بعض الشواهد لا كلها ، إلا أن هناك نقطة مهمة لا يمكن تجاوزها في مجال حماية المرؤوسين ، وهي وقوف قتيبة دائماً في مركز القيادة الأكثر خطورة ، فقد تكررت الشواهد حول وقوف قتيبة (أمام الثغرة ، أو الثلمة) أو في قلب المعركة ، أو في موقع يشرف على ميدان القتال ، أو حتى في اشتراكه مع القوة التي تنفذ واجباً خطراً (كقوة الكمين الليلي عند حصار سمرقند) ، وهو هنا لا يحمي مرؤوسيه بنفسه فقط ، وانما يقف في الموقع الذي يسمح له بمتابعة تطورات الموقف حتى يستطيع اتخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب ويشرف على تنفيذها بنفسه فيضمن النجاح في تنفيذ الواجب من جهة ، ويؤمن (حماية مرؤوسيه) من جهة ثانية . وتتكرر هنا مرة أخرى قضية التوازن بين تحقيق الواجب وبين حماية المرؤوسين ، إذ أن حماية المرؤوسين ليست هدفاً في حد ذاتها وانما هي وسيلة لتحقيق الهدف وهو (تحقيق النصر) ، فاذا ما تطلب الأمر — بعد اتخاذ جميع تدابير الحيطة — زج القوات في المعركة ، فان قتيبة لم يكن ليتردد في القاء (الكتلة الرئيسية لقواته) وزجها في المعركة حتى يتم له النصر . وكثيراً ما كان قتيبة يربط بين تنفيذ الواجب وبين (حماية مرؤوسيه) حتى في تنفيذ الواجبات الخاصة ، فعندما أرسل رسولاً إلى نيزك لمفاوضته كان مما قاله له : « انطلق الى نيزك ... واحتل لأن تأتيني به ...

واعلم أني إن عاينتك وليس هو معك صلبتك فاعمل لنفسك »
وعندما اختار قتيبة رجلين من مهرة الرماة لرمي ذلك الذي كان يشتم قتيبة من فوق أسوار سمرقند ، قال قتيبة للرماة : « أيكما يرمي هذا الرجل ، فان أصابه فله عشرة آلاف ، وإن أخطأه قطعت يده » . ولا حاجة للقول إن حرص قتيبة على (حماية مرؤوسيه) كان من العوامل الأساسية التي ضمنت له إخلاص هؤلاء المرؤوسين واندفاعهم لتأييده ، والاخلاص في تنفيذ الواجبات المنوطة بهم . ومقابل ذلك ، فقد تأكدت ثقة المعاهدين بقتيبة ، واعتمدوا على تأييده لهم مما ضمن تحقيق الاستقرار في الأقاليم وساعد بالتالي على انصراف المسلمين نحو بناء المجتمع الجديد . (مجتمع المسلمين) .



ب ـ قتيبة بن مسلم الباهلي وقوات المسلمين

١ ـ الاستعداد الدائم للقتال :

نؤم البلاد لحب اللّقـــــا ء ولا نتقي طائراً حيث طارا
سنيحاً ولا جارياً بارحــــــاً على كل حال نلاقي النسارا .

تلك هي المقولة التي استشهد بها مقاتل في جيش قتيبة وهو يرد على مقاتل أفزعه ما رأى من انتشار المسلمين ، وخاف أن ينالهم أعداؤهم وهم على مثل هذه الحال بمباغتة ، فكان الرد هو (انه لا خوف على المسلمين ، مهما كان موقفهم ومهما كان تنظيمهم ، فهم في جميع الأحوال على استعداد دائم للقتال) وهم لم يقطعوا المفاوز ، ويخترقوا الفيافي ، ويحتملوا الصعاب إلا (من أجل حب اللقاء) و (إلا من أجل مجابهة كل احتمال حتى لو كان طائراً جارحاً أو نساراً يخـــترق حجب السماء للانقضاض على المسلمين) . فهم في استعدادهم الدائم للقتال

يضعون جميع الاحتمالات ، لا تفزعهم مباغتة ، ولا تلحق بهم مكيدة ، ولا ترهبهم قوة مهما بلغت من البأس طالما أنها لا تتناقض مع (حبهم للحرب ولقاء الأعداء) . ولا يعني ذلك بالضرورة إهمال تدابير الحيطة . ولكن هذه التدابير من عمل القادة ، فالمقاتلون هنا على ثقة تامة بتدابير قائدهم . وليس عليهم إلا (أن يكونوا على استعداد دائم للقتال) من أجل تنفيذ ما يطلب اليهم تنفيذه بأسرع ما يمكن . وقد عرف المقاتلون في جيش قتيبة هذه الحقيقة . واستجابوا لها . فكانوا كتلة متحركة . وعاصفة قوية ، لا تعرف الهدوء ولا الاستقرار ، ولا السكون أو الراحة ، ما تفرغ من حرب حتى تأخذ استعدادها للحرب التالية ، ولا تنتهي من معركة حتى تنتقل إلى موقع معركة جديد . لا يهمها الخصم الذي تجابهه . ولا تحاول معرفة الاتجاه الذي ستسلكه فتلك هي واجبات القائد قتيبة ، أما واجبها فهو (السير في البلاد لحب اللقاء) .

ولعل أبرز صورة لهذه المواقف هي صورة عبد الرحمن ابن مسلم وهو يقود ١٢ ألف مقاتل تنفيذاً لأمر أخيه « سر الى البروقان ، وأقم بها ، ولا تحدث شيئاً ، فاذا حسر الشتاء فعسكر وسر نحو تخارستان واعلم أني قريب منك » ولا يحاول عبد الرحمن معرفة مخططات أخيه ، ولا معرفة احتمالات تطور الموقف فثقته كبيرة بأخيه القائد ، ويكفيه (أنه قريب منه) عند اللقاء . كما تبرز مثل هذه الصورة أيضاً عند تحرك قتيبة من خوارزم في اتجاه مرو ، ثم توجيه الأثقال نحو مرو بعد

مسيرة يوم واحد . واصدار الأمر إلى أخيه عبد الرحمن « اذا أصبحت فوجه الأثقال الى مرو ، وسر في الفرسان والمرامية نحو السغد واكتم الأخبار . فاني بالأثر – أتبعك » ويمضي عبد الرحمن الى هدفه ، ويتبعه قتيبة بجيشه الذي لم يكد يفرغ من معركة حتى وجد نفسه موجهاً نحو معركة أخرى . وهو في ذلك كله ، لم يفقد قوته ، ولم تضعف قدرته ، وبقي كعهده دائماً (على استعداد للقتال) . وبعد . فاذا كان الاستعداد الدائم للقتال هو من طبيعة الانسان العربي . وإذا كان الانضباط الطوعي هو من صلب العقيدة الاسلامية الدينية والقتالية ، فان كفاءة قتيبة القتالية إنما هي في الافادة من كافة المعطيات لصهر القوة المقاتلة وتوجيه هذه القوة نحو أهداف واضحة ، ومحددة . وليست العملية في جميع الأحوال هي عملية مزج (قوة عددية) لتطبيق (مبادىء ثابتة) بقدر ما هي خلق الحوافز لتكوين (نوعية مميزة) تمنح (للقوة العددية) القدرة على التفوق وفق مبادىء تكتسب من المرونة عند التطبيق ما يتوافق مع الهدف وذلك هو سر عبقرية قتيبة وتفوقه القيادي .

٢ – الروح المعنوية العالية :

وقف رسول قتيبة أمام ملك الصين الذي خاطبه بقوله : « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فاني عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه » . فقال

له هبيرة بن مشمرج رسول قتيبة : « كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك . وأما تخويفك إيانا بالقتل . فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه » . وتوضح هذه المقولة ، ما كان عليه كل عربي مسلم من الروح المعنوية العالية ، فهو يقف أمام ملك الصين ، ويقارعه الحجة ، بايمان ثابت ، وإرادة قوية ، تعتمد في أساسها على قوة المسلمين جميعاً في تماسكهم. (كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون) والمسلمون هنا يشكلون وحدة قتالية واحدة تبدأ من فلسطين والشام حيث (منابت الزيتون) وتنتهي بحدود الصين . ولا ريب أن هذه الوحدة كافية لتكوين (روح معنوية لا تتراجع ولا تتزعزع أو تهتز مهما كانت التحديات التي تجابهها) وتأتي الدعامة الثانية للروح المعنوية من (هدف الحرب) فالعرب المسلمون قد انطلقوا الى دنيا الفتوح دون طمع في خيرات هذه الدنيا أو بسبب الحاجة اليها ، فهم قادرون على تأمين متطلباتهم الحياتية من مواطنهم لو أرادوا ذلك ولكن حمل الرسالة فرض عليهم (ترك الدنيا وهم قادرون عليها والقيام بالغزو والفتوح) ويأتي بعد ذلك الايمان بالعقيدة الاسلامية ، وبما تحمله من مضامين الخلود للشهداء والصالحين والمجاهدين لتشكل العامل الأساسي في ازالة الخوف ولترفع الروح المعنوية حتى ذروة حب الشهادة والاستشهاد **(إن لنا آجالاً اذا حضرت فأكرمها القتل**

فلسنا نكرهه أو نخافه). وتأتي بعد ذلك الثقة المتبادلة بين القائد قتيبة وجنوده لتدعم هذه الروح المعنوية وتعززها . فثقة هبيرة ابن مشمرج بقتيبة ، ومعرفته بصدق وعيده وتهديده ، هي من جملة العوامل التي لا يمكن انكارها فيما تميز به موقف هبيرة من (الصمود للتهديد ، والتحلي بالروح المعنوية العالية) . وتتكرر مثل هذه الصورة في قصة عياش الغنوي الذي بعث به قتيبة الى ملك شومان ليقنعه بدفع الفدية التي كان قد صالح قتيبة عليها ، وعندما وصل عياش الى (شومان) خرج اليه أهلها . فصرخ عياش « أما ها هنا مسلم ! فخرج اليه رجل من المدينة فقال : أنا مسلم فما تريد ؟ فقال عياش : تعينني على جهادهم . قال : نعم . فقال له عياش : كن خلفي لتمنع لي ظهري » فقاتلهم عياش ، فحمل عليهم ، فتفرقوا عنه ، وحمل الرجل الذي ادعى أنه مسلم على عياش من خلفه فقتله . فوجدوا به ستين جراحة ، فغمهم قتله ، وقالوا : « قتلنا رجلاً شجاعاً » . ولا حاجة للقول إن هذه الشجاعة انما كانت تمثل الصورة الحقيقية (للروح المعنوية العالية عند جند المسلمين) في كل مرة تتوحد فيها جميع المعطيات (من قيادة حكيمة مؤمنة وتطبيق صحيح للعقيدة القتالية الاسلامية مع وحدة في الهدف تلتقي عندها ارادة المقاتلين جميعاً) وقد استطاع قتيبة تمثيل المعطيات جميعها ، فكان نجاحه الخالد في إخضاع الأقاليم المتمردة . والقضاء على جيوب المقاومة ، وافتتاح أقاليم جديدة لم يصلها المسلمون من قبله . وتبقى الروح المعنوية العالية هي الأساس في ذلك كله ،

ذلك أن المسلمين لم يكونوا يزحفون الى أعدائهم بقوتهم العددية . وانما بتفوقهم المعنوي الذي كان يساعدهم دائماً على تدمير التفوق العددي لأعدائهم والانتصار عليهم .

٣ — الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب :

اتخذ قتيبة من مرو عاصمة له ، وقاعدة لعملياته ، ثم انطلق بالمسلمين الى بيكند ثم الى نومشكت ورامثينة وبخارى والطالقان وشومان وكس ونسف وخوارزم وخام جرد وسمرقند والشاش وفرغانة وكاشغر . وليست هذه كلها مجرد أسماء وانما هي مواقع على امتداد آلاف الأميال في مناطق مختلفة ، فيها السهل وفيها الجبل ، وفيها الطريق الممهد وفيها الطريق الوعر . ولم تكن المسيرة الطويلة على امتداد عقد من الزمن مجرد مسيرة عادية ، وإنما كانت ملاحم متصلة من الصراع المرير ، في الليل والنهار ، وفي فصلي الخريف والصيف كما في فصل الشتاء، قدرٌ المستطاع ، مع ما يرافق ذلك من حر وقر ، لهيب وصقيع ، وذلك وحده برهان على الكفاءة البدنية التي ميزت جيوش المسلمين وتأكيد على قدرتهم الفائقة — على تحمل الصعاب — ولقد عرف الانسان العربي — بالقسوة — التي منحتها له الطبيعة ، والتي لا زالت رواسبها تعيش معه حتى في أيامه هذه حتى لو ستر هذه القسوة بأجمل الثياب الغربية ، ولكن الكفاءة البدنية والقدرة على تحمل الصعاب في أيام مضى عليها ما يزيد على ثلاثة عشر

قرناً ، وفي جيش مثل جيش قتيبة ، انما تعني نوعاً مميزاً آخر من الصفات الجسدية والنفسية ، انها تعني وببساطة تجاوز حدود الذات وانكار كل المصاعب التي تحتملها طاقة الانسان وقدرته ، وذلك من أجل تحقيق هدف عادل . وبذلك تتحول الكفاءة البدنية العالية من النطاق الفردي إلى نطاق الجيش بكامله فتدفعه الى احتمال الصعاب التي قد يصعب على الفرد النهوض بها أو احتمالها . وفي الحقيقة ، **فان الكفاءة البدنية العالية والقدرة على تحمل الصعاب لم تكن وقفاً على جيش قتيبة ، بل كانت صفة عامة وميزة بارزة لجيوش العرب المسلمين في كل مكان عملت فيه هذه الجيوش** ، وإذا أمكن تجاوز كل الأعمال القتالية السابقة والفتوحات المتتالية للوصول الى عهد قتيبة ، فسيظهر أن هناك أكثر من قائد كان يمارس عملياته بأسلوب مشابه اعتماداً على كفاءة جند المسلمين البدنية وقدرتهم على تحمل الصعاب ، فقد كان محمد بن القاسم الثقفي يقود جنده خلال الفترة ذاتها ليعمل إلى جنوب منطقة عمليات قتيبة ، وليضمن فتح (باكستان حالياً) ومناطق الهند الغربية ، وفي هذه الفترة ذاتها كان موسى بن نصير يقود عمليات مشابهة في أقصى المغرب لينطلق بعدها إلى الأندلس . في حين كانت جيوش أخرى للمسلمين تتوغل في بلاد الروم (بيزنطة) من أجل تأمين الحدود الشمالية لبلاد الشام ، هذا بالاضافة الى تلك العمليات البحرية في شرق المتوسط (سردينية) وغربه (جزر الباليثار) . وكانت هذه الموجة القوية من المقاتلين الأشداء هي التي أبرزت أسماء مجموعة من القادة

الخالدين . ولكن مهما كان عليه الأمر ، فهناك حقيقة أخرى لا يمكن التنكر لها أو انكارها أيضاً وهي أن جيل هؤلاء القادة ، قد أفاد من صفات المقاتل العربي المسلم ، ليحقق منجزاته الرائعة. إذ لولا وجود قادة من أمثال قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم وموسى بن نصير . وطارق وعقبة بن نافع وغيرهم . لما استطاعت (كتلة المقاتلين القوية والشديدة البأس) أن تصل إلى ما وصلت اليه ، في فتح العالم القديم شرقه وغربه ، ويبقى توجيه الكفاءة البدنية العالية ، والقدرة على تحمل الصعاب ، هو من عمل القادة وحدهم . ومن خلال هذا التفاعل المشترك ظهرت أروع صفحات فن الحرب عند العرب المسلمين .

٤ ـ قتيبة وما يعرف حديثاً باسم (الحرب الشعبية) :

كثيراً ما تتردد في كتب التاريخ العربية عبارة (واستخلف على حربها) وهي تعني بدقة ترك حامية واجبها الأول الدفاع عن المدينة تحت قيادة ذلك الذي تم (استخلافه) للقيادة والحرب . ويظهر بوضوح أن قوات المسلمين قد نظمت من قبل قادة العرب المسلمين تقسيماً يتوافق والواجبات الدفاعية أو الهجومية ، فالقوات الدفاعية أو (الحاميات) هي التي تتلقى الصدمة عند كل هجوم مباغت للعدو . وتؤمن حماية المدينة أو الاقليم الذي تدافع عنه ، أما القوات الهجومية فهي تلك التي (تتحرك لمجابهة العدو) وتعمل على إخضاع الأقليم المتمرد أو فتح الأقاليم التي لم

يسبق للمسلمين فتحها . ولا حاجة للقول ان هذا التقسيم قد ضمن استخدام جميع القوى والوسائط المتوافرة دون إهمال لأي امكانات أو قدرات . وعلاوة على ذلك فقد تكررت أكثر من مرة في سيرة قتيبة العبارة التالية (واندفعت — قوات العدو — في تقدمها حتى دخلت معسكر قتيبة ، وجاوزته الى معسكر النساء ، **فخرجت النساء المسلمات لمجابهة قوات العدو حتى ضرب النساء وجوه الخيل) .**

وهذا التقليد الاسلامي الذي سار عليه قتيبة انما هو اتباع لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وللقادة من بعده ، حتى خلال المعارك الحاسمة كاليرموك والقادسية وفتح الفتوح ، حيث كان للنساء دور كبير في اثارة الحماسة والاشتراك في الحرب . وتعتبر هذه الظاهرة أوضح برهان على تطبيق قادة العرب المسلمين لمبدأ (الحرب الشعبية بمفهومها الحديث) . وإذا كان استخدام هذا المبدأ قد ارتبط بالعقيدة القتالية الاسلامية ، فان قتيبة لم يكن مجرد متتبع لتقليد معروف ، وانما كان مبدعاً ومطوراً ، إذ أن تقسيم القوات بحسب الواجبات انما كان أكثر وضوحاً عند قتيبة منه عند بقية القادة . وعلاوة على ذلك ، فان تطبيق هذا المبدأ قد اكتسب مرونة خاصة عند تطبيقه في الشرق بسبب (قلة عدد المسلمين ، وبالنسبة لاتساع الأقاليم ، وبالنسبة للواجبات التي حددها قتيبة في عملياته أيضاً) ولهذا عمل على اتباع أسلوب (الفرض) على الأقاليم المحالفة للمسلمين أو المعاهدة لهم وذلك كاجراء تكميلي لتطوير أسلوب الجهاد واشراك

أكبر قوة ممكنة تحت راية العرب المسلمين . وهذا ما حمل غوزكاً ملك السغد على التقدم بطلب من قتيبة عندما قال له: « انما تقاتلني باخوتي وأهل بيتي من العجم ، فأخرج إلي العرب » وقد استجاب قتيبة للطلب وقاتله بفرسان العرب وحدهم ، وانتصر عليه ، ولكن ذلك يثبت تطوير (مفهوم الجهاد) وتطبيقه بمضمونه لا بحرفيته ، علاوة على ما سبق ذكره من حيث تحقيق مبدأ (الحرص على العنصر العربي — دعامة الاسلام) . ولعل تقسيم قتيبة لقوات العرب المسلمين إلى قوات دفاعية (حاميات) وإلى قوات هجومية ، إنما كان استجابة للامكانات المتوافرة . فضرورة ترك حاميات في المدن والأقاليم، علاوة على عدم توافر امكانات لتأمين القدرة الحركية للجيش بكامله هي التي فتحت المجال لاستخدام جميع العناصر المتوافرة في الحرب ، فالمقاتلون الذين لا يستطيعون مرافقة المسلمين في حرب حركتهم لأسباب مادية أو مرضية أو طارئة ، علاوة على أولئك الذين يتطلب الموقف تركهم تحت السلاح لتأمين الدفاع ، يستطيعون جميعاً تنظيم حاميات قوية برهنت الأحداث على توافر القدرة لها لمجابهة كل ما هو غير متوقع وضمنت بذلك اشتراك المسلمين جميعاً في أداء فريضة الجهاد ، وهو أكثر الأشكال تطوراً (في المفهوم الحديث للحرب الشعبية) .

٥ - قتيبة وحرية العمل :

عندما أراد عبد الملك بن مروان تعيين وال على خراسان، كتب الى الحجاج « انظر لي رجلاً صارماً ، ماضياً لأمرك » . فسمى قتيبة بن مسلم ، فكتب اليه عبد الملك « وَلِّه - أي أسند إليه ولاية خراسان » . وعندما توفي عبد الملك وخلفه الوليد بن عبد الملك أميراً للمؤمنين ، كتب إلى قتيبة : « قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجهادك في قتال أعداء المسلمين . وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك كالذي يجب لك . فالمم مغازيك ، وانتظر ثواب ربك ، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك ، حتى كأني أنظر إلى بلادك والثغر الذي أنت فيه » . وتشير كتب التكليف في الحالتين إلى ضمان نوع من القيود ، وهي في الحالة الأولى (الاذعان والانقياد - وأن يكون منفذاً لأمر الحجاج ماضياً لأمره) وفي الحالة الثانية ، اطلاع أمير المؤمنين على كل تطور في الموقف (حتى كأن أمير المؤمنين يراقب الموقف عن كثب) . ولكن هذه القيود المفروضة لا تشكل أي قيد في حرية عمل القائد ، فالمقياس الذي يقيده في البداية والنهاية هو مقياس النجاح أو الفشل ، فهو مطلق الحرية في قيادة قواته ، وحشدها ، وتجهيزها بالوسائط الضرورية ، ووضع مخططات العمليات ، ولكن ذلك لم يكن ليمنع القائد الأعلى (وهو الحجاج بن يوسف الثقفي هنا) من توجيه النصح إذا ما لمس خطأ أو علم بمخالفة تتناقض ومبادىء الحرب . وها هو

الحجاج ، وقد علم بتوجه قتيبة إلى مرو قبل جنوده وذلك في السنة الأولى من ممارسته لقيادته ، فكتب له « **إذا غزوت فكن في مقدم الناس ، وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم** » وهو يحدد له أن يكون دائماً مع القوة التي تقوم بتنفيذ الواجب الرئيسي ، ويقرر له المبدأ الثابت في مكان القائد من تنظيم القتال . وفي مرة أخرى ينصرف قتيبة إلى التعامل مع أهداف قليلة الأهمية فيكتب له الحجاج « اياك والتحويط ودعني من بنيات الطريق ، وارجع الى مراغتك ، فتب إلى الله مما كان منك . وأتِـها – بمعنى هاجمها – من مكان كذا ... وكذا... » تلك هي الحدود الواضحة التي ظهرت في مسيرة العلاقات بين القائد قتيبة وقيادته العليا ، وهي حدود لا تشكل أي قيد في مجال حرية العمل بقدر ما تساعد على تبادل الرأي وتنسيق التعاون ويظهر ذلك من خلال توجيه قوات الدعم التي فصلها الحجاج عن قوات محمد بن القاسم الثقفي ووجهها لدعم قتيبة ، ويمكن بعد ذلك ، ومن خلال متابعة سيرة قتيبة على امتداد ولايته ، ادراك مدى ما كان يتمتع به من حرية العمل المطلقة ، فقد كان يتخذ قراراته بحرية مطلقة – ولو أنه كان يستشير أصحابه في بعض المواقف ويأخذ بها عندما تتوافر له القناعة بصحتها – ولكن هذه الاستشارة لم تكن تشكل حداً من (حريته في العمل) بقدر ما كانت دعماً لوجهات نظره أو ترجيحاً لموقف يحتمل التردد أو المفاضلة . ولقد كانت حرية العمل طابعاً مميزاً يرتبط بجذور العقيدة القتالية الاسلامية . ثم يأتي بعد ذلك انتقاء القائد

ضمن شروط الكفاءة والولاء. والكفاءة قبل الولاء ، ويمنح القائد بعدها قدراً من حرية العمل، تتناسب والواجب الملقى على عاتقه، وتتوافق مع كفاءته القيادية وقدراته . وان هذا القدر من حرية العمل هو الذي يمنح القادة فرص ابراز كفاءاتهم وامكاناتهم ، ولعل حرية العمل هذه هي التي أخرجت للدنيا أجيالاً متتابعة من القادة ، أشرقت لهم الدنيا ، وأضاءت لهم صفحات (فن الحرب) عبر التاريخ .

٦ ـ الانضباط والطاعة :

تظهر شخصية قتيبة القوية والحازمة من خلال أقواله وأعماله ، فأوامره وسلوكه ، وممارسته القيادية كلها براهين على الانضباط القوي الذي كان يفرضه قتيبة على مرؤوسيه وجنده ، ولقد فرض الاسلام الانضباط والطاعة على المرؤوسين في حدود (طاعة الخالق) . وطالما أن الأمر يتعلق بفرض من فروض الاسلام ـ وهو الجهاد في سبيل الله ـ فتصبح الطاعة هنا نتيجة طبيعية متوافقة مع التعاليم الدينية وأساساً من أسس العقيدة القتالية ـ ولكن مجال الاجتهاد ـ مفتوح في العقيدة الاسلامية لتأويل (الطاعة) وتحديد حدودها ، وهذا سبب ظهور حركات الخوارج وتكرر الثورات ، وهنا يظهر الدور الفردي للقائد في التزامه هو نفسه بقواعد الانضباط ، ثم في الزام قادته ومرؤوسيه بهذه القواعد ذاتها ، وان قدرة قتيبة الرائعة في فرض انضباطه انما تبرهن لا على شخصيته القيادية المهيمنة فحسب ، وانما

تبرهن أيضاً على التزامه بأسس الانضباط . وقد يكون من المناسب هنا التعرض لبعض العوامل التي كان يستخدمها قتيبة من أجل دعم قدرته على فرض الانضباط والطاعة . **فقد كان قتيبة كثير الاهتمام بمرؤوسيه في إطار (الحرص على العنصر العربي — دعامة الاسلام)** وكانت شجاعة قتيبة في مواجهة (مواقف الخطر) تضمن له القوة التي تدعم قدرته لفرض الانضباط . كما كانت كفاءته البدنية العالية وقدرته على تحمل الصعاب ، وكذلك روحه المعنوية العالية بالاضافة الى تطبيقه السليم لمبادىء الحرب ، وكفاءته القيادية ، كل ذلك مما خلق المناخ المناسب لقبول كل ما يصدر عن قتيبة من أوامر وتعليمات ، دون التفكير حتى بمناقشتها أو إبداء الرأي فيها في كثير من المناسبات . وكان قتيبة يحرص في الوقت ذاته على إعطاء مرؤوسيه قدراً من حرية العمل تضمن له التأكيد على التزامهم بقواعد الانضباط وأسس الطاعة .

لقد كانت العدالة في معاملة المرؤوسين هي في جملة الأسباب التي ساعدت قتيبة على تعميق مفهوم (الانضباط والطاعة) . وإن متابعة أسلوب القيادة عند قتيبة يبرهن على أنه كان يجزل العطاء لمن يحسنون البلاء بقدر ما كان يشدد العقاب على من يقصرون في أداء الواجب ، وكانت هذه العدالة في الثواب والعقاب كافية لتثبيت (مضمون الانضباط والطاعة) .

هنا تبرز نقطة على جانب كبير من الأهمية في تأكيد

الارتباط الوثيق بين التزام القائد بالانضباط وقدرته على فرضه ، فقد استمر قتيبة على امتداد ولايته وهو مرهوب الجانب ، قوي السيطرة ، قادراً على فرض طاعته حتى في أصعب الظروف وأقساها ، ولكنه عندما تمرد على أمير المؤمنين ، فتح المجال الواسع لتمرد مرؤوسيه عليه . وكانت في ذلك نهايته المأساوية . ورغم أن هذه النقطة تحتاج الى مزيد من الايضاح (لظروف نهاية قتيبة) إلا أن ملامحها العامة كافية للبرهان على الرباط القوي الذي يضمن التوازن بين (الالتزام بقواعد الانضباط والطاعة) وبين (القدرة على فرضهما والزام المرؤوسين بهما) .



خاتمة

عودة الى قتيبة وفن الحرب :

« بعثت قتيبة فتىً غراً ، فما زدته ذراعاً إلا زادني باعاً » .
لقد كانت تلك الجملة التي قالها الحجاج بن يوسف الثقفي في ذكر قتيبة إنما تمثل في الحقيقة موقف قتيبة من فن الحرب .

لقد ولي قتيبة بلاد خراسان وهو فتى غر ، ذو خبرة محدودة في ادارة الحرب وممارسة القيادة . ويظهر ذلك من الأخطاء التي ارتكبها في بداية حياته القيادية والتي زجره الحجاج عن الوقوع فيها ، مثل قوله له « **إذا غزوت فكن في مقدم الناس وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقتهم** » ومثل قوله له أيضاً « إياك والتحويط ودعني من بنيات الطريق ، وارجع الى مراغتك ، فتب إلى الله مما كان منك ، وأتِها من مكان كذا وكذا ...) . وتبرهن هذه المقولات على تعلم قتيبة من ممارساته

ما ساعده على تطوير فن الحرب وتطوير فن القيادة ، ولكنه لم يكن لينجح في ذلك يقيناً لولا قدراته الموهوبة ، ولولا توافر حصالة كافية من المعلومات عن مبادىء فن الحرب وأسسه ، فقد أظهر تفوقاً في مجال المعرفة النظرية منذ بداية علاقته بالحجاج ، ثم جاءت مدرسة فن الحرب (العملياتية) لتساعد على إغناء هذه المعرفة وتطويرها ، ولعل النقطة البارزة هي عدم الوقوع في أي خطأ كان قد ارتكب في بداية ممارسة قتيبة لقيادته . فكان قتيبة بعد ذلك يحرص وباستمرار على التوجه مع القوة التي تنفذ الواجب الأكثر أهمية ، أو تقف في الموقع الأكثر خطورة . ثم يعمل بعدها على اتخاذ القرار المناسب ويشرف على تنفيذه حتى يضمن تحقيق النصر . ويظهر ذلك بوضوح من خلال متابعة أعمال قتيبة القيادية . ولقد استطاع قتيبة تطوير فن الحرب ، ونجح في تطبيق مبادىء الحرب وأسسها بحسب متطلبات الواقع ، وبحسب المواقف الطارئة ، وهكذا كان قتيبة تلميذ فن الحرب الناجح وأستاذه في وقت واحد ، شأنه في ذلك شأن قادة العرب المسلمين جميعاً . فقد أنضجتهم خبرات الحرب ، وصقلت مواهبهم ميادين القتال ، وكانت لديهم استعداداتهم القيادية لممارسة أدوارهم بشكل رائع ومذهل . هنا يمكن الانتقال الى نقطة أخرى لا بد من الاشارة اليها ، فاذا كان قتيبة (تلميذ الحرب وأستاذها) فقد كان هناك فوقه من يساعده على ممارسة دوره القيادي ، ويحدد له الأهداف ويقدم له متطلباته من الدعم الاداري ومن القوى والوسائط ، مع تنسيق

التعاون بين مختلف محاور العمليات وجبهات القتال . ولعل هذا الدور الذي اضطلع به (الحجاج بن يوسف الثقفي) لا ينقص من أهمية دور قتيبة بقدر ما يعزز من أهميته . إذ تظهر من خلال ذلك (وحدة القيادة) على مسارح العمليات المختلفة مما كان يضمن تعزيز كل نجاح واحباط عوامل كل فشل ، قبل أن تتحول هذه إلى (كوارث) أو (انتكاسات) تؤثر على مجموع مسارح العمليات . وتتكرر هذه الصورة ذاتها بعد غياب الحجاج . ثم وصول رسالة أمير المؤمنين الوليد (مع ما تتضمنه هذه الرسالة من تأكيد على استمرار الدعم ، ومتابعة تنسيق التعاون ، بالاضافة الى طلب البقاء على اتصال وثيق مع — أمير المؤمنين لاطلاعه على تطورات الموقف) ولقد كانت (وحدة القيادة) في طليعة العوامل التي ساعدت قادة العرب المسلمين على تحقيق أهدافهم العملياتية والاستراتيجية في وقت واحد .

إن هذه النقطة تقود إلى نقطة بارزة أيضاً . ذلك أنه عندما كان قتيبة يندفع في فتوحاته شرقاً وشمالاً ، كان هناك قائد آخر يعمل إلى جنوبه ويضمن له مجنبته الجنوبية من أن تتعرض لأي عدوان قد يفسد عليه مسيرة أعماله القتالية . وكان ذلك القائد هو (**محمد بن القاسم الثقفي**) ابن السابعة عشرة من عمره عندما تولى القيادة ، والذي فتح الأقاليم الواسعة من الديبل (اقليم باكستان الشرقية حالياً) ثم اندفع شرقاً عبر أقاليم (الهند) (برهمناباز — وساوندري والرور وبغرور وسرست وغيرها) . وقد حققت هذه العمليات أهدافاً مزدوجة ، فعلاوة على تأمينها

(المجنبة الجنوبية لفتوحات قتيبة) استطاعت حرمان المقاومات من التجمع ، وكان العمل على جبهتين في تواقت واحد ضماناً لنجاح استراتيجية (الحروب التشتيتية) لا على مستوى محور العمليات فقط ، وإنما على مستوى الجبهة بكاملها . وتظهر مرة أخرى عوامل النجاح الأساسية في فتـــوح العرب المسلمين **(وحدة متكاملة في القيادة على درجة عالية من الكفاءة ، ووضوح كامل في مبادىء العقيدة القتالية الاسلامية ، وجنود على درجة نادرة من الصبر ، والقدرة على احتمال كره القتال)**

وتظهر هذه الصورة بصورة أكثر وضوحاً عند متابعة مسيرة العمليات على مختلف جبهات القتال . ففي تلك الفترة ذاتها حيث كان قتيبة ومحمد بن القاسم يندفعان في فتوحاتهما نحو الشرق ، كان مسلمة بن عبد الملك يندفع شمالاً ومعه أسطول بحري في عمليات مشتركة (برية — بحرية) لحصار عاصمة البيزنطيين (القسطنطينية) . وفي تلك الفترة ذاتها أيضاً كان موسى بن نصير وطارق بن زياد يمارسان دورهما القيادي لاكمال فتح المغرب (بدعم من الأسطول البحري أيضاً) وعندما ينجح موسى في تحقيق الاستقرار ، ينهي استعداده لمتابعة فتوحاته في الأندلس . فكانت تلك الفترة ، فترة ثورة حقيقية — اذا صح التعبير — تجتاح دولة المسلمين ، وأمكن خلال فترة وجيزة اخضاع مساحات جغرافية تزيد على (حجم جميع الفتوحات السابقة) . ولقد كانت ادارة الحرب على هذه المساحات الشاسعة في زمن لم تكن تتوافر فيه وسائط الاتصال السريعة تتطلب قدراً كبيراً

من (حرية العمل) ، وهنا تبرز قضية (الموازنة) بين كفاءة القيادة العليا ، وكفاءات القيادات التابعة ، وهذا هو السبب الذي حمل أمير المؤمنين عبد الملك على التركيز في انتقاء القادة من بين الأكفاء عندما كتب إلى الحجاج يطلب اليه انتقاء قائد لقيادة عمليات خراسان بقوله « أنظر لي رجلاً صارماً – ماضياً لأمرك » فسمى له قتيبة ، فأصدر أمره بتوليته ، ولا حاجة للقول إن الصفات الأساسية التي طلبها (عبد الملك) هي الحزم ، والانضباط . وليس بالامكان تصور قائد تتوافر له مثل هذه الصفات دون أن تتوافر فيه كفاءات تكميلية أخرى – مثل السرعة في اتخاذ القرار والاشراف على تنفيذه ، ومثل توافر القدرة على فرض (الانضباط) وقيادة العمليات بقبضة قوية . ومن خلال هذا التكامل في (وحدة القيادة) وفي (التطبيق السليم لمبادىء الحرب) وفي (توافر جيوش من الجند المخلصين لهدف الحرب) ظهر جيل من القادة أعطى الدنيا تطوراً في فن الحرب لا زالت أسسه نابتة الجذور وارفة الظلال لكل من أراد التعلم من مدرسة الحرب (التقليدية) .

قتيبة واستراتيجية (الهجوم غير المباشر)

لقد كان لكل قائد من قادة العرب المسلمين أسلوبه الخاص في ممارسة عملياته (ضمن اطار حرية العمل المتوافر له) وفي حدود (القوى والوسائط) التي كانت تؤمنها له قيادته

أو التي يستطيع تأمينها من مسرح عملياته للوصول الى **(هدف الحرب)** . ومن هنا يظهر **(الطابع المميز)** لفتوحات كل قائد من القادة . رغم كل نقاط التشابه . ولقد تميزت حروب قتيبة بمجموعة من الخصائص (على نحو ما سبق ذكره) وتبقى هناك نقطة لم تأخذ أبعادها في الدراسة وهي **(استراتيجية الهجوم غير المباشر)** .

إن قضية الصراع المسلح ، هي قضية موازنة بين القوى والوسائط من جهة وبينها وبين (هدف الحرب) من جهة أخرى . ولقد كان هدف حروب المسلمين جميعها هدفاً كبيراً هو حمل الرسالة الى أرجاء الدنيا وتعريف (الناس) بها . وكانت قوى العرب المسلمين أقل بكثير من حجم هذا الهدف ، فكانت حروب المسلمين – نتيجة لذلك – حروب إرادات مارست فيها الإرادة الصلبة دورها في التغلب على الإرادات الضعيفة فأصبح دور القوى والوسائط تكميلياً وليس أساسياً ، وانطبقت مقوله **« كلاوزفيتز – بأن الحرب هي استمرار للسياسة لكن بوسائل أخرى »** انطباقاً تاماً على حروب المسلمين . ولقد حقق العرب المسلمون نجاحاتهم الرائعة بفضل تطبيقهم الدقيق لهذه الاستراتيجية منذ البدايات المبكرة لانطلاقهم من الجزيرة العربية سواء في صراعهم ضد البيزنطيين أو ضد الفرس . وكانت انتصارات اليرموك والقادسية تتويجاً لهذه الاستراتيجية ، ثم جاءت الحروب السهلة بعد ذلك تأكيداً لنجاح هذه الاستراتيجية ودعماً لها ، وقد استمر العمل بهذه الاستراتيجية بعد ذلك في جميع فتوحات

المشرق والمغرب – والتزم القادة جميعهم في العمل بأسسها ، ويظهر واضحاً **ان هدف استراتيجية الهجوم غير المباشر عند العرب المسلمين هو الوصول الى (هدف الحرب) بأقل جهد ممكن ، وضمن حدود القوى والوسائط المتوافرة .** ولا يعني اصطلاح – بأقل جهد – هنا عدم زج القوى والوسائط جميعها في المعارك الحاسمة ، بقدر ما يعني اقناع الخصم بعدم جدوى مقاومته وحمله على الاستسلام بعد وضعه بمواقف يصعب عليه الخروج منها . ويصبح دور « **إرادة الحوار** » و « **الروح المعنوية العالية** » و « **التصميم على القتال** » وبقية العوامل والمبادىء ، هو لاقناع الخصم (معنوياً) بقصوره عن مجابهة تيار الفتوح .

تظهر هذه الصورة من استراتيجية الهجوم غير المباشر ، بكل أبعادها ، في فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي ، فقد حشد كل ما يمكنه حشده من قوى ووسائط ، ثم أخذ في استخدام هذه القوى والوسائط بمهارة عالية في (صراع الارادات) حتى يحقق (مبدأ الاقتصاد بالقوى) وحتى (لا يستنزف قوته بأي صراع عقيم) فكان ينفذ من خلال النقاط الضعيفة لتدمير النقاط القوية ، وكان يستخدم استراتيجية الهجوم غير المباشر لحمل خصمه على ترك نقاط قوتهم . ولقد ظهرت هذه الاستراتيجية في إقناع نيزك بالاستسلام لقتيبة – بعد أن تم تحريره من إمكانات المقاومة . وكانت هذه الاستراتيجية قد ظهرت من قبل عند غزو الصغانيان (حيث حمل له ملكها

مفاتيح الذهب لبلاده) ، كما ظهرت أيضاً عندما تم اقناع نيزك بالاستسلام لقتيبة منذ تولى قتيبة إمارة خراسان وذلك عندما قال رسول قتيبة الى نيزك « ان هذا رجل شديد في سلطانه ، سهل اذا سوهل ، صعب إذا عوسر » .

وتتكرر ظواهر استراتيجية (الهجوم غير المباشر) بعد ذلك في جميع الأعمال القتالية لقتيبة ومن خلال عملياته السنوية ، حيث كان حكام الأقاليم وملوكها يسرعون اليه (بطلب الصلح) ما أن يبلغهم اقتراب جيوش قتيبة من حدود بلادهم . ولم تكن (حرب الحركة) و (المباغتة) و (المبادأة) إلا من بعض المبادىء التي كان يستخدمها قتيبة للوصول الى تحقيق النجاح (في استراتيجيته غير المباشرة) ويظهر ذلك عند فتح سمرقند بصورة خاصة ، كما تظهر أيضاً في (الاتصالات السياسية مع ملك الصين) حيث لجأ رسل قتيبة الى وسيلـة (الاقناع) لحمل خصومهم على النزول عند ارادة قتيبة والوصول الى (هدف الحرب) دون اللجوء الى الحرب .

لقد كان نجاح قادة العرب المسلمين في تطبيق استراتيجية الهجوم المباشر يعتمد على (إحباط ارادة القتال عند العدو — عن طريق تظاهرة القوة المسلحة) وبذلك يتحقق هدف الاقناع . وكثيراً ما كان يأتي نجاح الاستراتيجية بعد معركة حاسمة (مثل فتوح الشام بعد اليرموك وفتوح العراق بعد القادسية وفتوح فارس بعد فتح الفتوح نهاوند، ومثل فتح مصر بعد معركة بابليون

وفتح الأندلس بعد معركة وادي لكة) . ولكن معارك قتيبة جاءت في وقت متأخر ، ولهذا لم تكن استراتيجية الهجوم غير المباشر تكميلية . وانما كانت مقترنة بالأعمال القتالية ذاتها ، ذلك أن المقاومات التي كان ينظمها حكام الأقاليم المجاورة لبلاد المسلمين قد عرفت قوة المسلمين ، لكثرة الاحتكاك بها والتعامل معها ، ولم تعد (استراتيجية الردع النفسي) وحدها كافية لتحقيق (هدف الحرب) فكان من الطبيعي أن تتطور الأساليب القتالية بحسب المواقف المستجدة ، ولهذا عمل قتيبة على دمج العامل النفسي ضمن أسلوب القتال ذاته ، فكان كثيراً ما يستخدم القوة المادية لاقناع عدوه بعجزه عن مجابهة قوة العرب المسلمين . ثم يقوم باتصالاته السياسية بهدف عدم زج قواته أو استنزافها في معارك طويلة قد لا تنتهي بالحسم على المستوى العملياتي . اما عندما كانت تتوافر القناعة لقتيبة بقدرته على حسم الصراع المسلح - في حدود الخسارة الدنيا بالقوى والوسائط ، فانه لم يكن يتردد أبداً عن حسم الصراع المسلح مما كان يعطي استراتيجية الهجوم غير المباشر قوة دفع كبرى تقنع الخصوم الآخرين بعدم اللجوء الى الصراع المسلح . وكان استثمار النصر في كثير من الأحيان يأتي تكميلياً لتعزيز استراتيجية الهجوم غير المباشر ، ويظهر ذلك كله أن حروب قتيبة في معظمها كانت نموذجاً رائعاً (لحوار الارادات) يمارس فيها الذكاء الدور الأول والحاسم في تحقيق النصر .

نتيجة لذلك، **عرفت حروب قتيبة بأنها (حروب خدعة) .**

ولا حاجة للقول ان (الخداع في الحرب) كان أحد أساليب قادة العرب والتي طبقها الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم في حروبه . **ولكن هذه الخدعة لم تكن تعني أبداً (الغدر) إذ كانت حروب العرب المسلمين جميعها (حروب فروسية)** و (حروب قيم ومبادىء) فكان الغدر بعيداً عنها . ولقد كان التمييز الدقيق بين الخداع على المستوى التكتيكي والعملياتي وبين الغدر واضحاً تماماً . وهذا ما يدحض المقولات التي أطلقت على قتيبة يوم فتح (سمرقند) بأنه فتحها (غدراً) . وتتأكد هذه الحقيقة من خلال مفاوضات رسول قتيبة مع نيزك (حيث اشترط قتيبة عدم قطع أي عهد أو الالتزام بوعد من شأنه تقييد المسلمين وحرمان قتيبة من التصرف بحرية في تقرير مصير نيزك وأصحابه) وتعتبر هذه الصورة المشرقة هي النموذج الأعلى لنجاح استراتيجية الهجوم غير المباشر على أسس من القيم والمبادىء التي ميزت عقيدة الاسلام القتالية .

نهاية قتيبة وفن الحرب :

تثير نهاية قتيبة مجموعة من التساؤلات ، نظراً لتناقض سلوكه في مرحلة ولايته الأخيرة مع ما عرف عنه طوال قيادته للحرب في خراسان . فقد أظهر قتيبة تسرعاً وطيشاً في تعامله مع أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك . كما ارتكب حماقته الكبرى في خلع سليمان وإعلان تمرده قبل أن يأتيه رد سليمان .

وتكتمل هذه الحماقة في (أسلوب تعامل قتيبة مع زعماء العرب وتقريعه لهم ، وشتمهم مما زاد من نفورهم وحملهم على التجمع ضده ونبذه ومقاومته) . مما أدى إلى مصرع (ملك العرب) على أيدي وكيع التميمي .

ان تلك النهاية المأساة – التي غيبت سيفاً من أمضى سيوف العرب المسلمين ، تثير التساؤل حول التناقض بين كفاءة قتيبة القيادية ، وضياع تلك الكفاءة . وقد تكون القضية أكثر تعقيداً مما يظهر للوهلة الأولى . إذ من الممكن القول إن قتيبة **قد فقد قدرته على فرض الانضباط عندما تخلى هو نفسه عن ذلك الانضباط وأعلن تمرده ، ففتح المجال الواسع لأعمال التمرد المضادة** ، ولكن القضية ليست بمثل هذه البساطة ، فقد ابتليت الدولة الأموية بأعمال تمرد كثيرة قادها على الأغلب ولاة خراسان وقادتها ، وكان مصير هذه الثورات الفشل الذريع مع ما تركته هذه الثورات من جراح عميقة في جسم الأمة الأموية ، وعلى هذا فان الأرضية لم تعد، في عهد قتيبة على الأقل، مؤهلة لقبول ثورة جديدة . ومهما كان عليه الموقف فان ثورة قتيبة وتمرده انما تقترن في الواقع بمجموعة من الأحداث المشابهة التي حدثت خلال تلك الفترة ذاتها . فقد توفي الحجاج بن يوسف في سنة ٩٥ هـ – ٧١٤ م وولي يزيد بن أبي كبشة السكسكي السند ، فأخذ محمد بن القاسم الثقفي وقيده وحمله الى العراق ثم قتله، ولا ريب أنه كان لهذا الحدث أثر عميق في نفس قتيبة، ولهذا فعندما توفي الوليد في السنة التالية ، عرف أن في ذلك نهايته الحتمية ،

ولاسيما وأنه كان من أنصار عزل سليمان وتولية ابن الوليد ، كما كان قتيبة يعرف العلاقة الوثيقة التي تصل بين سليمان وبين منافسه على ولاية خراسان (يزيد بن المهلب) ولهذا صمم على إعلان تمرده، مع معرفته الوثيقة بنهايته الحتمية . وقد فضل ذلك على الاستسلام لنهاية سيئة كتلك التي لقيها محمد بن القاسم الثقفي . وعلى هذا فان قتيبة قد اتخذ قراره باعلان التمرد لا نزقاً لا طيشاً وإنما استناداً لمعطيات ثابتة لم تترك له سوى خيار أمر من اثنين ، إما الاستسلام مع احتمال الذل والهوان ثم الموت في النهاية ، وإما اعلان التمرد والموت قتلاً بإباء وشرف دون فكرة الاستسلام . ويتوافق الخيار الثاني مع طبيعة الانسان العربي الأبية ، أكثر مما يتوافق الخيار الأول – وهو الاستسلام .

هنا يظهر سؤال آخر وهو : **ألم يكن لقتيبة أسوة حسنة بالشيخ موسى بن نصير الذي استسلم لقدره ، وآثر الله ورسوله والتزم بالطاعة حرصاً على وحدة المسلمين ، رغم معرفته بمصيره الحتمي ؟**

لقد كان موسى بن نصير ، عندما تم استدعاؤه إلى الشام بعد فتوحاته قد بلغ من الكبر ما أكسبه معرفة جيدة بطبيعة الحكم في الشام وأخلاق أمراء المؤمنين من الأمويين ، كما أنه لم يكن يعرف أن الأمور ستصل الى مثل ما انتهى اليه أمره . ولهذا فانه لم يتردد في تلبية الدعوة للمثول أمام الوليد . والاستسلام لإرادته .

يتبين من ذلك أن الموقف لم يكن يتعلق بكفاءة قيادية ، أو بتطبيق لمبادىء الحرب ، بقدر ما كان يتعلق بموقف سياسي من الدولة الأموية ، فرضته مجموعة من المعطيات التي تتعلق بالادارة أكثر مما تتعلق بالظروف المحيطة بالقائد قتيبة ، ولقد توفي الحجاج بن يوسف ، وهو من أكثر ولاة بني أمية كفاءة وقدرة ، قبل موت الوليد ، وكان قد دعمه في موقفه من نقل الخلافة الى ابنه ، وهنا يمكن التساؤل عما كان عليه موقف الحجاج لو لم يباغته الأجل ، وعاش حتى ولي سليمان الخلافة ، أكان من المحتمل أيضاً أن يعلن الحجاج تمرده أم يستسلم لسليمان مع ما بينهما من النفور والشقاق ؟.

مهما كان عليه الموقف ، فانه من المحال افتراض احتمالات للحكم على حقائق تاريخية أو اجراء محاولة لتقويمها بعيداً عن تلك الظروف كلها . ولكن مما لا ريب فيه هو أن أعمال تمرد القادة باستمرار ، هي التي أرغمت أمراء الأمويين على اتخاذ المواقف الحازمة تجاه قادتهم ، والعمل على استبدالهم بصورة مستمرة قبل أن يشتد أمرهم ويقوى ساعدهم على شق عصا الطاعة والخروج على الجماعة . وقد كان لهم في مواقفهم حجج قوية وذرائع أكيدة في مقدمتها (المحافظة على وحدة الدولة والابقاء على هيبتها) . ورغم ذلك ، فعندما ألقي برأس قتيبة أمام سليمان بن عبد الملك ، لم يتردد في إظهار تأثره فقال « ما أردت هذا كله ! » ولا ريب أن سليمان كان صادقاً في سلوكه ، سواء عندما أرسل لقتيبة يعلمه موافقته على الاستمرار في توليته

على خراسان ، أو عندما بلغه قتله ، ويتأكد الصدق في سلوكه من خلال ما عرف عنه في حياته من العدل ، ونفاذ البصيرة ، والحرص على دعم قوة دولة المسلمين وتحقيق الاستقرار لها ، **ويؤكد ذلك اختياره لعمر بن عبد العزيز خليفة له .**

تبقى الحقيقة الثابتة بعد ذلك في خسارة الدولة الأموية لثلاثة من أفضل سيوفها على التتابع ، فقد قتل محمد بن القاسم في عام ٩٥ هـ ، وقتل قتيبة في سنة ٩٦ هـ ، كما كان موسى بن نصير قد عزل منذ عام ٩٥ هـ وتوفي عام ٩٧ هـ . وهكذا كانت كل سنة من هذه السنوات تمضي ومعها قائد من أفضل قادة العرب المسلمين . وبغيابهم توقفت أعمال الفتوح الرائعة ، ووصلت حدود المسلمين من الصين شرقاً حتى حدود بلاد الغال (فرنسا) غرباً . وأخذ المد الاسلامي ذروته على أيدي هؤلاء القادة الذين ظهروا للدنيا في توافق واحد ، ومارسوا أعمالهم خلال فترة واحدة تقريباً ، ولا ريب أن ظهور هؤلاء القادة في جيل واحد ، مع ما حققوه ، إنما يعود الى تلك المنجزات الرائعة التي حققها عبد الملك بن مروان ثم من بعده ابنه الوليد ، حيث شهدت الدولة الأموية بعضاً من الاستقرار الذي كانت تفتقده ، وأصبح بالامكان انتقاء أفضل الرجال لقيادة الرجال والانطلاق بهم نحو آفاق الدنيا الواسعة لحمل رسالة الاسلام . وكان هؤلاء الرجال هم الذين أضاءت لهم الدنيا ، واستجابت لارادتهم ، فتركوا للعرب المسلمين دولة فريدة في

التاريخ ، وبقيت أسماء قادة الفتح رغم نهاياتهم المأساة ، منارات مضيئة في سماء (فن الحرب) عبر التاريخ .

بعد قتيبة :

تولى يزيد بن المهلب خراسان في عام ٩٧ هـ = ٧١٦ م . وبدأ عملياته باعادة فتح جرجان وطبرستان ، ولكن يزيداً لم يحقق من العدل ما أراده عمر بن عبد العزيز فأمر بعزله وتقييده وإرساله اليه ، فهرب يزيد وأعلن تمرده حتى تم قتله في عام ١٠٢ هـ ، وخلال ذلك توالى على خراسان عدد من الولاة ، وأفاد أنصار الدعوة العباسية من هذا الموقف لنشر دعوتهم ، وبقي الأمر كذلك حتى ولي هشام بن عبد الملك امارة المسلمين (١٠٥ — ١٢٥ هـ) وكانت فترة الاستقرار التي حققها هشام تخفي تحتها رماد الفتنة . وقد أدرك ذلك والي خراسان (نصر ابن سيار) منذ ابتلي بولاية خراسان عام ١٢٥ هـ . حيث أخذ في قتال أصحاب الدعوة العباسية الى أن توفي ١٣١ هـ ، ثم انتصر أصحاب الأعلام السوداء على آخر خلفاء الأمويين في معركة على نهر الزاب ، حيث قتل مروان وانتقلت الدولة الاسلامية من أيدي الأمويين الى أيدي العباسيين .

وهكذا كانت تربة خراسان هي التي احتضنت الدعوة العباسية وهي التي أزالت دولة العرب المسلمين التي صنعهـا الأمويون ، وتبع ذلك انقسام وحدة العالم الاسلامي ، باستقلال

الأندلس بعد دخول عبد الرحمن الداخل اليها (١٣٧ هـ) ، وأخذت في التشكل محاور جديدة ، فقد وجدت الدولة البيزنطية حليفاً لها في أقصى المغرب ممثلاً بدولة الأندلس ، كما وجدت بغداد حليفاً لها في الدولة الكارولنجية (شارلمان وحلفاؤه) الذين أخذوا يعملون من بلاد الغال (فرنسا) للتنكيل بمسلمي الأندلس والنكاية بهم . وقد ظهرت هذه المحاور بصورتها الواضحة في أيام هارون الرشيد وعبد الرحمن الناصر . وأخذت دولة العرب المسلمين في تبديد قوتها والتحول تدريجياً الى الاستقرار ، والابتعاد عن (الصراع المسلح) إلا في حدود (الدفاع عن النفس) وتغيرت أسس الاستراتيجية العربية — الاسلامية — فلم تعد استراتيجية هجومية ، تعتمد على الحسم في الصراع المسلح بقدر اعتمادها على (الاتفاقات السياسية) المرحلية .

ومقابل ذلك أخذ ميزان القوى المضادة للدولة الاسلامية في التحول التدريجي ، إلى أن بلغ الأمر ذروته في الحروب الصليبية ، ثم تبع ذلك غزوات التتار فزالت الدولة العباسية بدورها من الوجود (١٢٥٨ م) . ولقد كان تمزق الوحدة السياسية للعالم الإسلامي هو نقطة البداية في هذه التحولات كلها ، وهي التحولات التي كان من أبرزها الانتقال من (السياسة الاستراتيجية الهجومية) إلى (السياسة الاستراتيجية الدفاعية) .

محتوى الكتاب

الفصل الثاني : قتيبة بن مسلم وفن الحرب

خــاتمة



صدر عن دار النفائس للمؤلف

أ - الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية .

ب - مشاهير قادة الاسلام

١ - عقبة بن نافع
٢ - موسى بن نصير
٣ - قتيبة بن مسلم الباهلي
٤ - سعد بن أبي وقاص
٥ - عمرو بن العاص
٦ - أبو عبيدة بن الجراح
٧ - خالد بن الوليد
٨ - معاوية بن أبي سفيان
٩ - صلاح الدين الأيوبي .
١٠ - المظفر قطز وعين جالوت
١١ - الظاهر بيبرس ونهاية الحروب الصليبية القديمة
١٢ - عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)
١٣ - عبد الرحمن الناصر لدين الله
١٤ - الحاجب المنصور
١٥ - المعتمد وابن تاشفين

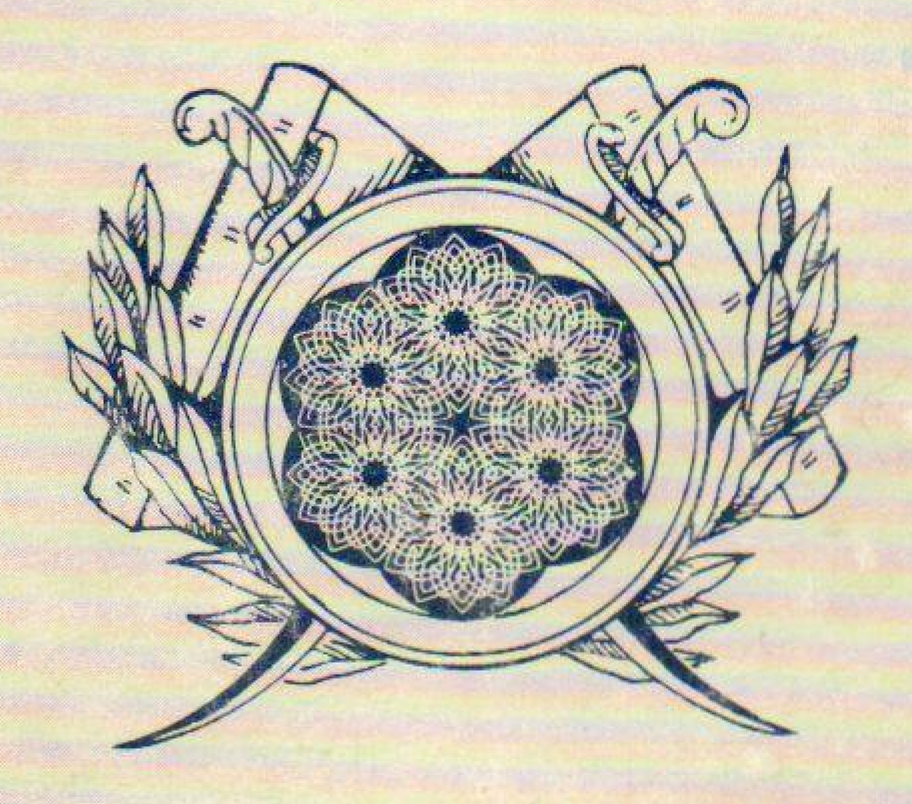
ج - جهاد شعب الجزائر

١ - خير الدين بربروس
٢ - الجزائر والحملات الصليبية
٣ - المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي
٤ - الأمير عبد القادر الجزائري
٥ - محمد المقراني (وثورة ١٨٧١ - الجزائرية)
٦ - الأمير خالد الهاشمي الجزائري
٧ - عبد الحميد بن باديس

ويصدر تباعاً :

٨ - الصراع السياسي على نهج الثورة الجزائرية
٩ - الله اكبر - وانطلقت ثورة الجزائر
١٠ - جيش التحرير الوطني الجزائري والصراع المسلح
١١ - أيام جزائرية خالدة
١٢ - المجاهدون الجزائريون - وتطور الصراع المسلح
١٣ - المجاهدة الجزائرية - والارهاب الاستعماري
١٤ - الاستعمار الفرنسي في مواجهة الثورة الجزائرية
١٥ - جبهة التحرير الوطني الجزائرية - والصراع السياسي





دار النفائس ص.ب ١١.٦٣٤٧ هاتف ٣٠٢٥٣٨ - بيروت